كارديا

رواية



كارديا

رواية

شيماء الماريه

مراجعة لغوية: مريم عبد الجواد

تصميم الغلاف: د. عبد الله رجب

الطبعة الأولى: 2021

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 2036/ 2021

الترقيم الدولي: 6- 36-6798-977-978

إشراف عام: رباب الشهاوي

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما. أمام جنينة مول. مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing

كارديا

حيرة فحيرة فحيرة، ثم نور

رواية

شيماء الماريه

الفؤاد للنشر والتوزيع

إهداء...

إلى أول الطريق..

ورفيق الطريق..

وصاحب الطريق..

والنورالذي يضئ الطريق..

إهداء إلى الطريق..

النهاية..أو هكذا تبدو...

كل شيء حدث سريعًا بالرغم من أنه استغرق أكثر من عقد كامل، كأنها في دائرة وعادت توًّا إلى نقطة البداية، لا تعرف ما حدث، ولا تتذكر جيدًا كيف آلت الأمور بها إلى هنا. فمنذ أقل من أسبوع كانت تحيا حياة تظنها حياة مستقرة، ومنذ أقل من ثلاثة أعوام كانت عروسًا تظن نفسها سعيدة، ومنذ أقل من اثني عشر عامًا كانت تظن أنها تبدأ بداية جديدة.

لا تعرف كيف تدهورت أوضاعها إلى هذه الدرجة؟ ما الذي أعادها إلى هنا، إلى تلك المستشفى؟ ما الذي أعادها إلى نقطة البداية؟ وهل هي بداية جديدة؟ أم ربما هي النهاية التي تنتظرها منذ سنوات.

فوق ذلك الفراش المتحرك، يدفعونها بهدوء إلى ذلك المصير الذي طالما تهرَّبت منه منذ ثلاث سنوات. كل شيء يتكرر بنفس التفاصيل تقريبًا، نفس المستشفى، الطبيب الذي كرهته، الشهر ذاته، حتى الحضور، ينقصهم فقط بضعة أشخاص تلاشوا بفعل الزمن حتى إنها كانت تبكي في صمت، تمامًا مثلما كانت تبكي منذ اثني عشر عامًا، أو ربما لم تتوقف عن البكاء منذ ذلك الحين.

كل شيء كما هو تقريبًا لم يتغير، إلا هي، هي التي سارت ذلك الطريق، ودخلت غرفة العمليات تلك منذ اثني عشر عامًا، ولم تخرج حتى الآن وكأنها علقت بالداخل.

كانت منهكة بشدة، ولكنها واعية تمامًا، أما عقلها فقد كان يعمل بكامل طاقته في كل شيء عدا التفكير فيما هي مقبلة عليه الآن، فكرت باستسلام ـ أدهشها من نفسهاـ إنها على مشارف إجراء جراحة قلب مفتوح ثانية لتغيير صمامين في قلبها، بعد قليل سينشرون عظام صدرها، سيقسمونها نصفين ويخرجون قلبها

ليعيدوا إصلاحه. تحسَّست رسغها الأيسر وهي تتساءل: ترى كيف ستخرج تلك المرة من تلك الغرفة الملعونة؟

ليتهم تلك المرة يستطيعون إصلاح ما أفسدته الحياة، وما أتلفته التجارب والصدمات، ليتهم يستطيعون تخليص قلبها من كل تلك الخيبات التي أصابته، ليتهم يعيدونها كما أخذوها أول مرة منذ اثني عشر عامًا؛ فتخرج فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها تحمل في قلبها بئرًا من الأمل لا ينضب أبدًا.

ها قد وصلت إلى تلك الغرفة التي تعرفها جيدًا، غرفة التخدير، في المرة الأولى أوصتهم بكل براءة أنها تريد أن ترى غرفة العمليات قبل أن تنام كليًّا، كأنها مقبلة على مغامرة لا على جراحة قلب مفتوح كبيرة وخطيرة، ولكنها الآن تريد أن يصمت كل شيء، وينتهي ما يحدث سريعًا، فلقد أرهقتها التفاصيل وضاقت ذرعًا بذلك الحشو الزائد في الأحداث، تريد أن تغمض عينيها وتفتحهما فجأة لتعرف أين أصبحت. في المرة الأولى اتخذت قرار إجراء الجراحة بكل سهولة ويسر، ولكنها الآن محرومة حتى من اتخاذ القرار؛ فلقد اتخذه بدلًا عنها قلبها المتعب وصماماتها المهترئة.

ـ كيف حالك يا ليلى؟

قالها دكتور التخدير بمنتهى الروتينية وهو يدفع إلى أوردتها ذلك السائل الذي يفقدها الحياة تدريجيًا.

لم تجبه ولكنها ولأول مرة منذ أسابيع تبتسم حينما رأت غطاء رأسه بأشكاله الكارتونية وألوانه المبهجة، ثم ما لبثت أن أغمضت عينيها بهدوء؛ لتبدأ رحلة جديدة، لا تعرف هل ستعود منها أم لا؟

***

ـ لقد توقف النبض تمامًا.
قالها طبيب التخدير بقلق وتوتر وهو ينظر إلى الجرَّاح الذي انتهى لتوِّه من فصل قلب (ليلى) من على المجازة الصناعية، وأعاده إلى صدرها مرة أخرى، فتوترت ملامحه وهو ينقل نظره بين قلبها وجهاز قياس العلامات الحيوية الموصول بجسدها، وهو يتابع ذلك الخط المستقيم الذي يدل على أن قلبها لا يعمل، فأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة، مرَّت لحظات وما زال الخط مستقيمًا دون أيِّ تعريجات، فأمرمساعديه بإعطائها بعض المحاليل، وبدأ في محاولاته لإنعاش قلبها مرة أخرى.
كانت (ليلى) تسمع كل ما يدور في غرفة العمليات، ثم فوجئت بنفسها تقف بين طاقم العملية الجراحية تنظر في شفقة إلى جسدها النائم على فراش العمليات في سلام بلا حراك وقلبها بلا حياة.
الجميع يتحرك بعصبية وتوتر شديدين بالرغم من أنها كانت في منتهى الهدوء لا تشعر بأيِّ آلام، بل على العكس تمامًا كانت تشعر أنها خفيفة سعيدة، ولأول مرة منذ سنوات طويلة لا تشعر بذلك الحزن الذي طالما لازمها، فتمنت وهي تنظر إلى جسدها الميت في أسف ألا ينجحوا في إعادتها مرة أخرى، تمنت أن يظل هذا الخط مستقيمًا إلى الأبد؛ ليرتاح قلبها المنهك أخيرًا، وتبدأ هي بداية جديدة بلا حزن وبلا ألم.
شعرت بأن جسدها شفافًا كالهواء لا يعترضه حواجز، فوجدت نفسها تخترق حوائط المستشفى حتى وصلت إلى صالة الانتظار؛ لترى والدها العجوز يجلس هناك مستندًا بذقنه إلى عصاه الخشبية، رافعًا عينيه إلى السماء بين الحين والآخر، كأن هناك حوارًا خفيًّا صامتًا بينه وبين الله، بجواره يجلس (شريف) زوجها،

عيناه معلقتان في توسُّل بتلك الشاشة التي تخبر ذوي المرضى بتطورات عملياتهم الجراحية، ووقت انتهائها فور انتهائها.

سارت عبر طرقات المستشفى لتصل إلى مسجد المستشفى، وترى أمها تسجد فتسبقها دموعها، ثم رأت (يحيى) يجلس وحيدًا في حديقة المستشفى حزينًا شاردًا، يدخن بشراهة وهو ينظر في ساعة يده كل لحظة، فاقتربت منه وجلست بجواره في قلة حيلة، وكم تمنت أن تربت على كتفه أو تحتضنه، حينما انتبهت إلى أنه يتصفح صورها بملامح متألمة خائفة، ثم فجأة تغيَّر المشهد تمامًا، فأصبحت في مكان مظلم غريب، في آخره بصيص نور ضعيف جدًا تزداد قوة إضاءته كلما اقتربت منه، وكلما كانت تقترب كان الإحساس العجيب بالسلام الذي اجتاحها يزداد؛ فهي في بُعد آخر لا وجود فيه للوقت ولا الفضاء، ولا المادة موجودة تمامًا، ولكن أيضًا معزولة تمامًا، إلا أنها في كل الأحوال مدفوعة إلى ذلك الضوء الذي حينما وصلت إليه وجدت نفسها في تلك الساحة الكبيرة أمام مسجد (سيدي طلحة) حيث كان منزلهم القديم، كانت أرض الساحة كلها مزروعة بنبات غريب تراه لأول مرة، وريقاته كبيرة وعريضة يشع منها النور.

نظرت حولها في استغراب وهي ترى المسجد وقد أصبح أكبر من المعتاد، كان الوقت محيرًا لم تستطع تحديده، هل كان وقت الشَّفق أم الغسق؟ ولكنها كانت مأخوذة بتلك الرائحة العطرة التي ملأت أنفها، وريح الصبا التي هبَّت برقة وطمأنتها بشكل عجيب.

تعلقت عيناها بباب المسجد الرئيسي الذي كان من الفضة الخالصة، يخرج منه نور قوي لا تعرف مصدره، نور لا يؤذي العين، بل على العكس يملأ الروح والقلب بهدوء وسلام، ثم فجأة رأته، رجل عجوز طيب يرتدي عباءة تميل إلى

اللون البني وبيده عصا خشبية، يبدو عليه الزهد، جميل الوجه بالرغم من أنها لم ترَ ملامحه جيدًا، فقد كان النور يملؤها، ولكنها رأته بقلبها. ملامح محايدة ليست حزينة ولا سعيدة، بل متمعنة، كان يقف أمام باب المسجد يتكئ على عصاه الخشبية، وينظر أمامه ناقلًا بصره بين الواقفين، وحينما توجهت بعينيها إلى حيث ينظر رأتهم جميعًا.

حشد كبير من البشر، بينهم جيرانها في منزلهم القديم، فأخذت تنقل بصرها بينهم، وقد عرفت معظمهم بالرغم من أنها لم ترهم منذ أكثر من عشرين عامًا، تطلعت إليهم في استغراب، وهي تتساءل: لماذا هم جميعًا بهذه السعادة وهذا الرضا؟

فتلك (أم هناء) تحتضن في شوق (طلحة) ابنها الصغير، وتلك (سميحة) جارتهم تحمل طفلًا رضيعًا في سعادة بالغة، وذلك الرجل عم (سعيد) صاحب محل البقالة الوحيد في منطقتهم، و(أم ميرفت) تلك المرأة المكلومة ترتدي جلبابًا أبيض وتسجد لله في سعادة، و(نهلة) صديقتها ووالدتها والكثيرمن الأشخاص منهم من تعرفه تمام المعرفة، ومنهم من لم تره من قبل، ولكن الجميع كان سعيدًا حتى من كان يبكي منهم.

تحرَّك ذلك الشيخ الطيب، وأخذ يمرُّ بين الجميع؛ فيتوقف عند البعض ليعطيهم شيئًا ما في يده، ثم يكمل سيره حتى يتوقف عند آخرين، وهكذا حتى وصل إليها، نظر إليها نظرة طبعت اطمئنانًا عجيبًا في روحها إلا أنها لم تمنع تلك الرجفة من أن تجتاح جسدها، رجفة قوية لم تنبع من الخوف، ولكن نبعت من هيبة وقوفها أمامه.

وجدت نفسها تفتح يدها اليسرى لا إراديًا وتمدُّها إليه، ولكنه لم يعطها شيئًا، فقط مسح بأطراف أصابعه على بطن كفها، ثم أحكم قبضتها على مكان أنامله،

فأغمضت عينيها في استسلام وسلام، وقد شعرت أنها بدأت تتلاشى تدريجيًا حتى لم تعد موجودة.

وفي غرفة العمليات زفر الجميع في راحة حينما بدأت صافرة الأجهزة الموصولة بـ (ليلى) في الانتظام بعد أن تعرَّج ذلك الخط المستقيم مرة أخرى، نظر الجرَّاح إلى قلبها في سعادة حينما بدأ لونه يتحول مرة أخرى إلى لون الحياة، وقد بدا ينبض بانتظام معلنًا عودة الحياة مرة أخرى لصاحبته.

***

فقط لو..

فقط لو لم نترك تجاربنا السيئة تسيطرعلى حاضرنا، ومستقبلنا واختيارتنا.

فقط لو لم نترك للخوف الفرصة لكي يحتلنا فيرهقنا ويحرم علينا الحياة.

فقط لو نعرف قيمة ما بأيدينا قبل أن نختبر مشاعر فقدانه المريرة.

فقط لو نخبر من نحب بأننا نحبه قبل أن يحرمنا القدرمن مجرد رؤيته.

فقط لو نحيا كل يوم كأنه اليوم الأخير لنا.

فقط لو...

تنهدت(ليلى) وهي تفكرفي كم الأشياء التي كانت ستتغير في حياتها، فقط لو كانت أقوى وأشجع مما هي عليه الآن، وهي وحيدة في إحدى غرف العناية الفائقة، والتي نقلت إليها مؤخرًا بعدما ساءت حالة قلبها بشدة عقب عدة أيام من عمليتها الجراحية الأخيرة، تنظر إلى الخارج من خلال ذلك الجدارالزجاجي؛ فترى الممرضات والأطباء يتحركون بهدوء ويتحادثون بهمس.

أفضل ما في تلك الغرفة أن مواعيد الزيارة بها محددة وتنتهي مبكرًا، فلم تكن مضطرة لمقابلة أحد أكثر من خمسة دقائق كل أربع ساعات، هكذا فكرت وهي

تحاول تحريك ذراعها الأيسر ببطء، ولكنها فشلت في ذلك، فزفرت في ضيق ما لبث أن تحوَّل إلى دموع ساخنة.
لم تكن تلك هي النهاية التي تتمناها على الإطلاق مع (شريف)، بل في حياتها بأكملها، لماذا كلما ظنت أنها تبدأ بداية جديدة اكتشفت أنها نهاية مؤلمة وموجعة؟! ما الذي فعلته ليحاوطها الفشل هكذا من كل ناحية؟
ربما كانوا جميعًا على حق، ربما هي مجنونة متسرعة غير مسؤولة أو غير مؤهلة لاتخاذ أيِّ قرار، ربما آن الأوان أن تترك لهم حياتها وزمام أمورها، لربما نجحوا فيما فشلت هي فيه.
شعرت بألم في جرحها، وثقل في أنفاسها، ففكرت أنها ربما تحتاج أيضًا إلى قلب جديد وذاكرة جديدة، ثم ما لبثت أن عقدت حاجبيها حينما تذكرته. ذلك الحلم بكل تفاصيله الغريبة والذي هاجم ذاكرتها فجأة، وفرض نفسه على عقلها الذي أخذ يعيده عليها بالتفصيل؛ أمها وهي تصلي في جامع المستشفى وتبكي، وأبوها، وزوجها و(يحيى) وهو وحيد في حديقة المستشفى في خوف وقلق، ثم جامع (سيدي طلحة)، وذلك الرجل بملامحه الطيبة، وجيرانها.
ازداد انعقاد حاجبيها وهي تتساءل بداخلها: متى حلمت بذلك الحلم؟ وكيف لم تتذكره سوى الآن؟ وهل من الممكن أن تحلم وهي مخدرة تمامًا هكذا؟ وما ذلك الحلم الغريب؟ إنه ليس أغرب أحلامها بل على العكس كان أكثرهم هدوءًا وسلامًا، على الأقل لم ينته بكارثة مثل سابقيه.
قطع أفكارها دخول الطبيب المساعد للجرَّاح الذي أجرى لها عمليتها الجراحية بهيئته الطويلة، وابتسامته الجميلة، تصحبه إحدى الممرضات حيث ألقى عليها التحية، ثم أمسك بذلك الملف المعلَّق على فراشها، وأخذ يقارن بين ما هو

مكتوب فيه، وبين شاشة الأجهزة الموصول بها جسدها، وهو يزمُّ شفتيه في رضا، ويقول لها باطمئنان:
ـ الحمد لله، كل شيء جيد جدًا، ثم استأذنها في أدب وهو يقترب منها:
ـ هل من الممكن أن أعاين الجُرح؟
كشف على جُرحها بطريقة روتينية قبل أن يقول:
ـ ممتاز.
قالها بابتسامة جذَّابة قابلتها (ليلى) بعبوس، وهي تسأله بينما تعيد ستر نفسها بيدها اليمنى:
ـ أنا تقريبًا لا أشعر بقدمي اليسرى، أشعر بتنميل شديد بها طوال الوقت، وثقل في يدي اليسرى أيضًا، وبالكاد أستطيع تحريكها.
أومأ الطبيب برأسه متفهمًا ما تقوله، ثم أجابها قائلًا:
ـ كل هذه مجرد أعراض ستتلاشى تدريجيًا بجلسات العلاج الطبيعي، يجب أن نحمد الله على ما وصلتِ إليه، فغالبًا ما تكون أضرار توقف القلب كل هذه الفترة أصعب بكثير مما تشتكين منه قد تصل إلى ضمور في المخ، أنتِ في معجزة.
عقدت حاجبيها في استغراب وعدم فهم، وهي تسأله:
ـ قلب مَنْ الذي توقف؟ أنا لا أفهم شيئًا.
أدرك الطبيب أنه لم يخبرها أحد بما حدث لها أثناء الجراحة، فتنحنح وقال:
ـ لقد توقف قلبك أثناء الجراحة ست دقائق وتسع وثلاثين ثانية.
ثم أكمل مازحًا محاولًا أن يخفف من عبء الصدمة عليها:
ـ أتذكر الوقت بالثانية؛ لأنه في الثانية الأربعين قلبي أنا الذي كان سيتوقف.

صمت كل شيء حول (ليلى)، فلم تعد تسمع شيئًا من حديث الطبيب وهي تنظر إليه في ذهول وصدمة، عاد ذلك الحلم بتفاصيله إلى عقلها مرة أخرى، فأدركت الآن أنه لم يكن مجرد حلمًا.

هل كان واقعًا؟ هل كانت تلك روحها التي غادرتها لما يقرب من السبع دقائق، وطافت ورأت كل ما رأته؟ لقد ماتت بالفعل وبعثت من جديد.. هذا ما أكده لها الطبيب. الآن فهمت كل ما يقولونه عن أن الله قد كتب لها حياة جديدة، فهل يعني ذلك أن كل ما رأته روحها كان حقيقيًا؟ أمها وأبوها و(شريف) و(يحيى)، لكن ماذا عن بقية الرحلة؟ ولماذا ذهبت بروحها إلى حيِّهم القديم بالتحديد؟ ومن ذلك الرجل ذو الملامح الطيبة الذي كان يقف أمام باب المسجد؟

ارتعش جسدها وهي تضم قبضة يدها اليسرى كأنه لمسها الآن مرة أخرى، لقد أعطاها شيئًا وأحكم قبضتها عليه، ولكن القدر لم يمهلها الفرصة لتعرف ما هو ذلك الشيء؛ فهي لا تتذكر أيّ شيء بعد ذلك.

أعاد عقلها ذلك الحلم مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرة تتذكر تفاصيل جديدة، إلا أن عقلها يأبى أن يعترف بما شعر به قلبها وتيقن منه تمام اليقين، فقد ظل عقلها يخبرها أنه بالتأكيد هناك تفسير ما لما رأته سابقًا ولما سمعته توًّا.

صداع مميت كاد أن يقسم رأسها نصفين، فأمسكت جبهتها في ألم وهي تفكر أنها ذهبت إلى العالم الآخر لمدة سبع دقائق، تلك حقيقة لا جدال فيها. لم يخذلها الله كما ظنت فلقد أماتها بالفعل، ثم أحياها مرة أخرى، لقد منحها بالفعل حياة جديدة وبداية جديدة، زفرت في ضيق وهي تفكر أن ها هي قد عادت إلى كلمة بداية من جديد.

(فلينكسر قلبك مرة تلو الأخرى، وإلا فكيف له أن ينفتح؟)

مولانا جلال الدين الرومي.

الليلة الأولى

بدأت (ليلى) تصعد سلالم منزلهم القديم، تحمل على ظهرها حقيبة كبيرة، وفي يدها حقيبة ثانية. وبالرغم من ثقل الحقيبتين إلا أنها كانت تصعد بسرعة وسهولة، وكلما صعدت طابقًا ونظرت للأعلى وجدت أنه ما زال ينتظرها الكثير، وفجأة وجدت نفسها أمام باب المنزل فابتسمت وهي تضع الحقيبة التي كانت تحملها في يدها على الأرض، ثم فتحت حقيبة يدها لتخرج المفتاح ولكنها لم تجده، أخذت تبحث في الحقيبة التي كانت فارغة إلا من تلك المِسبحة الخضراء وهي تَسُبّ نفسها، فها هي قد كررتها مرة أخرى، وجاءت كل تلك المسافة دون أن تتأكد من وجود المفتاح بحوزتها، فزفرت في ضيق وهي تمسك بالمِسبحة تنظر إليها كأنها تنتظرمنها معجزة ما، حينما ظهر بجوارها ذلك المجذوب الذي تعرفه جيدًا، وسبق أن رأته من قبل، بنفس ملابسه وهيئته، وهو يقول:

ـ ادخلي، الباب مفتوح.

نظرت إليه باستغراب وهي تدفع الباب بإحدى يديها برفق؛ لتفاجأ أنه بالفعل مفتوح، فخطت إلى الداخل بنشوة وحنين، وحينما تذكرت حقائبها اكتشفت أن ظهرها أصبح خاليًا من أيِّ حمل، كما أن الحقيبة الأخرى قد اختفت تمامًا، ولكنها لم تهتم، دخلت إلى المنزل وبدأت تتجول فيه وهي تنظرحولها في عدم تصديق، كأنهم لم يتركوه يومًا واحدًا، فقد كان نظيفًا مضيئًا وكل شيء في مكانه وبنفس حالته، اتجهت إلى حجرة أخواتها حيث التلفاز والشُرفة التي تطل على الشارع الرئيسي؛ لتجد أباها ينتظرها بسعادة وهو جالس في الشرفة جلسته المعتادة دائمًا، عيناه على ذلك المسجد الكبير، يشرب كوبًا من الشاي وهو

صامت تمامًا، فانضمت إليه (ليلى) وهي تنظر حولها إلى المنازل المجاورة ثم إلى الساحة الكبيرة في سعادة..

كانت تلك الشرفة ضيقة العرض، ولكنها طويلة تدورمع حدود الغرفة، فاتجهت (ليلى) إلى آخرها، حينما سمعت صوت أبيها، يقول لها:

ـ ليلى.. لا تبتعدي، ليلى.. ليلى.

فتحت (ليلى) عينيها فجأة على صوت أمها الخافت وهي تحاول إيقاظها، وقد انتفض جسدها فأسرعت إليها أمها تهدئ من روعها، وهي تقول لها في أسف:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، أنا آسفة يا حبيبتي.

نظرت إليها (ليلى) في صمت للحظات، ثم ابتلعت لعابها وتنفست بهدوء وهي تعتدل في فراشها، وتقول:

ـ خير، خير يا ماما.

ربتت أمها على كتفها في حنان، ثم قبَّلت رأسها، وقالت قبل أن تخرج:

ـ هيا، الغذاء جاهز، ولقد اقترب موعد دوائك.

وما إن خرجت أمها حتى مدت (ليلى) يدها أسفل الوسادة كأنها تتأكد من وجود شيء ما، ثم ما لبثت أن زفرت في راحة وهي تمسك بتلك المِسبحة الخضراء بشكلها المميز، ثم وكأنها تذكرت شيئًا ما، أعادت المسبحة إلى مرقدها أسفل الوسادة، واتجهت إلى خزانة ملابسها وأخرجت حقيبة يدها التي كانت تحملها في يوم عودتها إلى مصر.

التقطت الحقيبة وفتحتها، لا تعرف عن ماذا تبحث، فهي متأكدة أنها خالية تمامًا. فتحت سحاب ذلك الجيب الداخلي، ثم زفرت في راحة وهي تخرج مفتاح منزلهم القديم، أمسكت المفتاح وما يزال ذلك الشعور بالسعادة الذي كانت تشعر به في حلمها مسيطرًا عليها، وهي تضعه تحت الوسادة

بجوارالمِسبحة، ثم أغلقت الحقيبة وهمَّت بإعادتها مرة أخرى لمكانها حينما سمعت صوتًا ما بداخلها، فأعادت فتحها مرة أخرى باستغراب، والبحث بداخلها ولكنها لم تجد شيئًا فهزتها؛ لتسمع صوت ارتطام شيء معدني ما، فأخذت تبحث بيدها جيدًا داخل الحقيبة حتى شعرت بوجود شيء صلب تحت أناملها، وحينما فتشتها جيدًا اكتشفت وجود قَطْعٍ صغير في بطانة الحقيبة الداخلية، فمدت كلًّا من إصبعيها السبابة والوسطى من خلال ذلك القطع، وبعد محاولة بسيطة التقطت ذلك الشيء والذي ما إن نجحت في إخراجه حتى اتسعت عيناها في ذهول، وهي تنظر إلى آخر شيء توقعت أن تراه أو تجده.

لقد كان بصحبتها طوال ذلك الوقت، كان معها طوال تلك الرحلة التي لم تعرف بعد لماذا قامت بها، كان في متناول يدها ولكنها لم تبحث جيدًا، أو ربما كانت رؤيتها مشوشة جدًا للدرجة التي جعلتها لا ترى ما بين يديها، نظرت إلى الأعلى وهي تتنهد بعمق وتومئ برأسها علامة أنها قد فهمت الرسالة وكأن هناك من يحدثها، ثم ضحكت بقوة وهي تعيد ذلك الشيء إلى الحقيبة مرة أخرى، وقد اتخذت قرارًا لا يحتمل الرجعة.

ستسافر إلى بلدتها في أقرب وقت، وستذهب إلى منزلهم القديم لتبدأ رحلتها الحقيقية.

***

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحًا حينما انطلقت (ليلى) في رحلتها إلى كفر الشيخ، محافظتها التي ولدت وترعرعت بها، وقضت بها أنقى سنوات حياتها، الطريق شبه خالٍ في تلك الساعة المبكرة من الصباح، والسيارة مسرعة كأنها تشتاق مثلها للوصول سريعًا.

فتحت نافذة السيارة ليتسلل إليها نسيم الصباح البارد محملًا بهدوء وتفاؤل وأمل جديد، فأغمضت عينيها في نشوة وأخذت نفسًا عميقًا مطمئنًا، وهي تبتسم في رضا حينما تذكرت أمها التي تفاجأت بقرار سفرها ورفضته بشدة، بحجة أنها ما زالت في مرحلة التعافي من عمليتها الجراحية، وأنها تحتاج إلى عناية خاصة، ولكن كانت المفاجأة الكبرى حقًا هي أبوها الذي أيَّد قرارها بقوة، بل وقرَّر أيضًا أن يصحبها، وها هي الآن بصحبته في تلك السيارة الخاصة متوجهان إلى منزلهما القديم في حي (سيدي طلحة) بمدينة كفر الشيخ.
تطلعت (ليلى) إلى الطريق في شوق، ذلك الطريق الذي تحفظه عن ظهر قلب بكل تفاصيله منذ بدأت تعي الأشياء حولها، فلقد كانت أسرتها دائمة السفر إلى القاهرة حيث بقية عائلتها؛ ففي القاهرة حياة أخرى تجمعها بأبناء عمومتها وأبناء خالاتها، تلعب وتضحك وتتنزه وتحيا طفولتها التي كانت محرومة منها في مدينتها الصغيرة، تجتمع بمن هم في مثل سنها ومن تعشق صحبتهم، وربما لذلك أيضًا كرهت مدينتها عامة، وذلك الحي الذي كانوا يحيون فيه خاصة، وكلما كبُرت كلما تساءلت: لماذا نحيا هنا بعيدًا عن كل من نحبهم؟ لماذا نحيا في ذلك الحي الشعبي الذي لا يشبهنا فيه أحد، ولا نتعامل فيه مع أحد؟ وكانت الإجابات دائمًا ما تأتي باهتة مخيبة لآمالها، وغير مقنعة لعقلها، ولكنها أبدًا لم تتوقف عن التساؤل الذي تحوَّل إلى تمرّد وطلب دائم بالرحيل.
ابتسمت في شجن وهي تتعجب من الأيام وما تغيره في الإنسان، فلو أخبرها أحد منذ عشرين عامًا أنها ستعود يومًا إلى كفر الشيخ وإلى منزلهم القديم، بالأخصِّ وأنها ستكون في قمة السعادة والراحة هكذا لنعتته بالجنون، ولكنها عادت وبصحبة أبيها، آخر إنسان في العالم كانت تحلم يومًا أن يجمعها به شيء ما، آخر إنسان في العالم قد يوافقها على قرار أو يعينها عليه.

انتبهت على صوت نغمة تنبيه برنامج (واتس آب)؛ لتجد الرسالة من (يحيى) الذي كان يطمئن عليها فطمأنته بكلمات قليلة، وعادت إلى الطريق وهي تفكر فيه، فقد طلب منها (يحيى) أن يرافقها في تلك الرحلة على أن يقيم في أيِّ فندق ليكون إلى جوارها طوال اليوم في حال حدوث أيِّ شيء أو احتاجت إلى شيء ولكنها رفضت، لا تنكر أنها شعرت بسعادة غامرة من طلبه، وبقدر ما تمنت أن يرافقها إلا أنها رأت أن تلك هي رحلتها الخاصة. رحلة البحث عن إجابات لأسئلة لا تستطيع أن تسألها لأيِّ شخص، رحلة البحث عن ذلك الشيء المفقود داخلها منذ زمن، والذي كانت على يقين لا تعرف مصدره أنها ستجده هناك في (سيدي طلحة)؛ لذلك أرادت أن تبدأها وتنهيها بمفردها دون أيِّ شيء، أو أيِّ شخص قد يسبب لها أيَّ نوع من أنواع الضغط، كما أن (يحيى) لم يكن موجودًا في رؤياها مثله مثل (شريف) وأمها.

أليس من الممكن أن تكون تلك إشارة لضرورة أن تكون بمفردها هناك؟ ألم يخبرها ذلك الرجل الطيب ذو البشرة الخمرية الذي رأته في دهب أن تركِّز في الإشارة؟ هي تحاول الآن أن تجمع كل الخيوط لتنسج منها معنى جديدًا لحياتها، تحاول أن تركز في كل تفصيلة مهما كانت صغيرة ظنت في يوم ما أنها لن تُحْدِثَ فارقًا، تحاول أن تستخرج الحكمة من كل ما حدث، فبالتأكيد لم يحدث لها كل ذلك عبثًا، أغمضت عينيها في رضا؛ لتستمتع بنسمات الهواء الباردة وهي تلفح وجهها، وتنساب إلى روحها، ثم راحت في سُبَاتٍ عميق.

***

البداية..أو هكذا تبدو..

انتفضت (ليلى) من غفوتها على يد تربت بخفة على كتفها، لثوانٍ لم تعِ شيئًا، ولكن سرعان ما أعاد عقلها ترتيب المشهد سريعًا، حينما رأت تلك المضيفة الجوية وهي تنظر إليها بأسف ألحقته باعتذار أنها أيقظتها، ثم سألتها برقة أن تستعد وتربط حزام الأمان؛ لأن الرحلة على وشك البدء. أومأت برأسها للمضيفة الجوية مع شبح ابتسامة تخبرها أنها بخير، ثم اعتدلت في جلستها وهي تنظر حولها في الطائرة، بينما ذهبت المضيفة الجوية لتتفقد ركابًا آخرين.

أخذت (ليلى) تحرك رقبتها يمينًا ويسارًا في ألم وهي تنظر في هاتفها المحمول؛ لتتفاجأ أنها لم تغفُ لأكثر من عشر دقائق بدت لها ساعات. شعرت ببرودة شديدة تجتاح أطرافها بالرغم من أن جميع من بالطائرة يرتدون ملابس صيفية خفيفة، ويبدو عليهم الاستمتاع بالبرودة التي يصدرها مبرِّد الهواء، لكنها أخرجت من حقيبتها وشاحًا خريفيًا تدثَّرت به، وأحكمت إغلاقه حولها بعقد كلتا يديها حول صدرها، وهي تحاول أن تتذكر ذلك الحلم الذي راودها منذ لحظات، إلا أنها لم تتذكر سوى ومضات لا تفسير لها، ذلك المكان الواسع، رجل عجوز لا تستطيع تذكر ملامحه جيدًا، ولكنها ملامح طيبة يحمل في يده مِسبحة خضراء تصدر نورًا عجيبًا، وشاب يسير تائهًا وهو ينظر إلى شيء في منتصف ذلك المكان.

نظرت حولها مرة أخرى، ثم أسندت رأسها إلى ظهر مقعدها، وسرعان ما نسيت حلمها تمامًا، وعادت لتفكر في حياتها. الجميع يتحرك والأفواه تتحدث، ولكنها لا تسمع شيئًا، فقد أصبح كل شيء صامتًا بشكل عجيب، والغريب أنها لم تمارس هوايتها المعروفة في تأمل من حولها، لم تنظر إلى بقية الركاب، وتبدأ

كما تعودت في نسج قصص من خيالها عنهم، بل أدارت رأسها لتنظر من نافذة الطائرة الصغيرة إلى ذلك الليل الثقيل بالخارج، والذي لا يقطعه سوى بعض الإنارة.

بعد عشر دقائق ستقلع الطائرة، وبعد ثلاثين دقيقة ستدخل في يوم جديد والذي يصادف أنه عيد مولدها، ستبدأ رحلتها وعامها الجديد في السماء، بداية غريبة وصدفة أغرب أن يبدأ عامها الجديد مع نهاية حياة بأكملها، وهنا شردت بعيدًا في اللاشيء، بينما ظل عقلها يعيد تلك الكلمة "البداية"، لطالما كانت كلمة البداية كلمة محيرة ومبهمة بالنسبة إليها..من أين تبدأ البداية؟ وكيف نعرف أنها بداية؟ وهي ليست سوى نهاية مكررة.

"من أين تفضلين أن تبدأي"؟ أول سؤال كان يوجهه إليها كل طبيب نفسي تذهب إليه، أول سؤال كانت تسمعه من أيِّ شخص جديد تتعرف إليه، أول سؤال كانت تطرحه على نفسها حينما تبدأ في تحقيق حلم ما، أو تجربة شغف جديدة.

وأكثرسؤال كانت تخشاه وتتهرب منه، سؤال كان يزيد حيرتها حيرة، ويجعلها تتوقف طويلًا وتفكر كثيرًا، عن أيِّ بداية يسألون؟

عن بداية معرفتها لمعني كلمة خوف ـ وهي صغيرة لم يتجاوز عمرها الثمانية أعوام ـ من مجرد سماع وقع أقدام أبيها، أو صوت سلسلة مفاتيحه وهي تتحرك في مكانها المخصص في باب المنزل معلنة وصوله؟

أم عن بداية معرفتها بالخيال بهذا العالم الرائع الذي كانت دائمة الهروب إليه بمصاحبة رواياتها وكتبها وأفكارها المختلفة عن كل من حولها، عن بداية إحساسها بأنها فتاة غريبة الأطوار غير قادرة على تكوين صداقات كبقية الفتيات؟ أم عن بداية معرفتها بمعنى كلمة اغتراب حينما تيقنت أن أمها لن

تكون صديقتها أبدًا وأخواتها الأكبر منها أبعد عنها في كل شيء، وليس في السن فقط، عن بداية إدراكها لجمال الحياة مع أول إحساس داعب عواطفها في مراهقتها؟ عن أيِّ بداية يسألون؟

عن أول مرة بكت بسبب رجل وأقسمت ألا تبكي أبدًا؟ أم عن حياتها بعده؟ عن حياتها الجديدة بعد أن خرجت من تلك العملية الجراحية الكبيرة؟ أم عن زواجها من رجل كانت تظن أنها ستحبه؟

هل البداية هي أول كل شيء؟ أم هي أول إحساس بكل شيء؟

قطع أفكارها صوت المضيفة الجوية وهي تخبر الرُّكَّاب أن يلتزموا بمقاعدهم، وأن يربطوا أحزمة الأمان إيذانًا ببدء الرحلة، وها هي بداية جديدة لشيء يحدث كل يوم.

ابتسمت (ليلى) في سخرية وهي تحكم ربط حزام الأمان حول خصرها، ثم أغلقت عينيها وهي تفكر أن لكل شيء بداية، ولكنها أصبحت على يقين أن ما يبدأ لا ينتهي أبدًا، وسرعان ما راحت في سُبَات عميق، والعجيب أنها عادت إلى حلمها مرة أخرى.

***

سارت (ليلى) تجرُّ خلفها حقيبتها الصغيرة والتي لا يتناسب حجمها إطلاقًا مع حجم خيبتها وحزنها الكبيرين، حقيبتها التي يثقلها الفشل والخوف، الساعة تشير إلى الثالثة والنصف فجرًا بتوقيت القاهرة، وصالة الوصول بمطار القاهرة الدولي تقريبًا خالية في ذلك التوقيت الهادئ من العام، والذي لا يواكب توقيت سفر المغتربين أوعودتهم، تسير ببطء كأنها لا تريد الخروج، على عكس كل العائدين الذين يهرولون للقاء أحبتهم، ولكنها وحيدة لا ينتظرها خلف أبواب المطار سوى حياة ذات ملامح باهتة، ومستقبل ليس له أيَّ معالم.

فيما مضى كانت تعشق صالة الوصول بالمطار، وتكره صالة السفر بشدة، فقد كان الوداع حينها يؤذيها، والفراق يترك أثرًا مؤلمًا بداخلها ليالٍ طويلة، عكس الآن تمامًا، كم تغيرت؟ كم أصبح قلبها الصغير كبيرًا يتسع لكل أنواع الألم؟ هل أصبحت أقسى؟ أم كَثُر الوداع والرحيل حتى فقدا هيبتهما؟

عبرت البوابة الإلكترونية بثقل وهي تنظر حولها في رتابة، لقد تغير كل شيء، فلقد جعلت قوانين المطار الجديدة الوداع يقتصر على إنزال الحقائب من السيارة، جعلت وقع الرحيل أخفّ على النفوس، حتى صالة الوصول التي كانت تملؤها الفرحة، ويتردد في أرجائها صراخ اللقاء السعيد أصبحت باردة فارغة. أكملت طريقها إلى الخارج بنفس الثقل والبطء وهي تسأل نفسها للمرة الألف ما الذي أعادها إلى هنا؟؟ فالحقيقة أنها لا تنتمي إلى هنا، وأيضًا لم تكن تنتمي من حيث جاءت، ولكن تلك الحقيقة تكون أقسى في بلدك وبين أهلك وأصدقائك. هي إقرار دائم بالوحدة وشعور مستمر بالاغتراب، وما إن عبرت قدماها بوابة المطارالرئيسية حتى لفحتها موجة هواء باردة جعلت جسدها يقشعر، وقلبها يرتجف، وكل أفكارها تتجمد، بينما تسلل دفء عجيب إلى روحها، فتنفست بعمق، وقد تعجبت من ذلك الحنين الذي اجتاحها فجأة. من الواضح أن جسدها وروحها لهما رأي آخر، تنفست بقوة ثم زفرت بإحباط وقد تذكرت أمها، فكل دقيقة تمرُّ عليها في مصر بدون علمها هو شيء بالتأكيد ليس في صالحها.

تأزمت ملامحها فليس لديها قدرة على الحديث وخاصة مع أمها، ولكنها أيضًا لا طاقة لها بعواقب عدم إخبارها بوصولها، حتى إن حجة التوقيت حجة فاشلة؛ فأمها تصلي الفجر حاضرًا كل يوم؛ لذلك أمسكت بهاتفها لتتصل بها، وقد قررت ألا تعطيها أية فرصة للحوار أو الشِّجار، فقط ستخبرها بوصولها،

ثم وإن بدأت أمها في إلحاحها المعتاد ستغلق الهاتف، وتتحجج لها في وقت لاحق بأن بطاريته قد نفذت.

ـ ألو، ليلى، ماذا حدث؟ لِمَ تتحدثين الآن؟ هل أنتم بخير؟

ابتسمت (ليلى) من صوت أمها المضطرب والمذعور دائمًا، وطريقتها التي لا تعطي فرصة لأحد بأن يجيبها من تسارع أسئلتها؛ لذلك قطعت سيل الأسئلة المنهمر على أذنها، قائلة:

ـ أنا بخير يا ماما لا تقلقي، أنا في مصر، لقد وصلت توًّا، وسأذهب لمنزلي.

وما إن انتهت من جملتها حتى شهقت أمها، وانهالت عليها بالمزيد من الأسئلة، والتي حاولت (ليلى) أن تجيب عليها بدبلوماسية، إجابات تطمئن بها أمها، ولكنها لم تستطع، فلم يكن لديها طاقة للاستماع، فما بالك بالتحدث، كانت مستهلكة ومستنزفة نفسيًا وعصبيًا، وآخر ما ينقصها هو حديث أمها أو بالمعنى الصحيح التبرير لأمها؛ لذلك ظلت صامته بضعة دقائق، ثم قالت فجأة وبدون أيِّ مقدمات بصوت عالٍ نوعًا ما:

ـ ماما، لقد تطلقت.

وما إن قالت جملتها حتى توقفت أمها عن الحديث، وساد صمت رهيب، انتظرت لحظات معطية أمها الفرصة لتستوعب ما قد سمعته توًّا، ولكن حينما طال الصمت عقدت (ليلى) حاجبيها، وهي تنظر إلى الهاتف لتكتشف أنه بالفعل قد نفدت بطاريته.

***

وصلت (ليلى) أخيرًا إلى منزلها بحي المعادي، أو بالمعنى الأدق منزل زوجها الذي كان شهمًا معها لأقصى حد، فترك لها الحرية كاملة للاستقرار في أيِّ مكان تريده حتى تهدأ تمامًا، فربما تستقر حالتها النفسية وتتراجع عن ذلك القرار

الطائش كما قال، أشفقت عليه كثيرًا فلقد صدمه بشدة طلبها الطلاق لدرجة كرهت نفسها معها. وقفت أمام باب المنزل تلتقط أنفاسها في ألم، فالمصعد يعمل بشفرة إلكترونية خاصة وهي لا تملك واحدة، بل لم تهتم بذلك من الأساس.

بدأت أنفاسها في الانتظام، ولكنها كانت تشعر بصداع مميت في رأسها وألم شديد في صدرها، أرجعته لإرهاق السفر؛ ولأنها لم تأخذ دواء قلبها منذ ثلاثة أيام، مدَّت يدها في حقيبة اليد لتبحث بطريقة عشوائية عن سلسلة المفاتيح، ولكن بحثها المبدئي لم يسفر عن شيء، فجلست على إحدى السلالم، وبدأت في البحث مرة أخرى مخرجة محتويات شنطتها واحدة تلو الأخرى بهدوء، ومن ثم تضعها على فخذيها في حرص كي لا يقع منها شيء، وهي تدعو الله ألا يكون ما تظنه قد حدث، بحثت كثيرًا حتى إنها أخرجت كل محتويات حقيبة يدها، ولكنها لم تجد سوى سلسلة مفاتيح منزل عائلتها القديم الذي نشأت فيه، واكتشفت أنها بالفعل قد نسيت إحضار سلسلة مفاتيحها، فهبَّت واقفة في غضب لتتناثر كل أغراضها على الأرض، محدثة ضجة قوية مقارنة بالهدوء الذي يسبح فيه المكان في ذلك الوقت من اليوم، مما زاد من غضبها.

أسندت رأسها على باب المنزل في محاولة منها لتهدئة نفسها والتفكير في حل سريع، حيث أخذت نفسًا عميقًا، وبدأت في تجميع أغراضها المتناثرة على الأرض، حينما تناهى إلى مسامعها صوت باب المنزل المواجه لمنزلها وهو يفتح، تبع ذلك صوت جارتهم الذي جاء محملًا بالكثيرمن الدهشة، وهي تقول:

ـ (ليلى) حمدًا لله على السلامة، ما هذه المفاجأة؟

أغمضت (ليلى) عينيها في غيظ وهي تلعن نسيانها وغبائها وكل شيء، فآخر ما ينقصها الآن تلك الجارة الثرثارة التي تراقب الجميع من خلف باب منزلها،

ولكنها سرعان ما اغتصبت ابتسامة حاولت أن تكون طبيعية وهي ترفع رأسها، وتقوم بتحية جارتها:
ـ الله يسلم حضرتك يا طنط، آسفة على الإزعاج الذي أحدثته.
أقبلت عليها جارتها بترحاب مبالغ فيه، وهي تحتضنها بقوة وتقبلها وتسألها:
ـ هل أتيتِ بمفردك؟ أين (شريف)؟ ولماذا عُدتِ بتلك السرعة؟ فلم يمر على سفرك أكثر من ستة أشهر.
همت (ليلى) بإجابتها، ولكن جارتها لم تعطها فرصة حينما نظرت إليها في فرحة وعدم تصديق كأنها اكتشفت شيئًا قويًّا، وقالت:
ـ انتظري، يبدو أنك حبلى وأتيت لمتابعة الطبيب والولادة هنا.
اندهشت (ليلى) من تفكير جارتها، ولكنها ما لبثت أن عقدت حاجبيها وهي تفكر فيما قالته، كيف لم تلتفت إلى ذلك الأمر من قبل؟ إن دورتها الشهرية متأخرة بالفعل لأكثر من شهر، ولكنها أرجعت ذلك لسوء حالتها النفسية والخلافات الكثيرة التي كانت بينها وبين (شريف) زوجها في الشهر الأخير. كيف لم يأتها ولو هاجس واحد بأنها قد تكون حبلى؟ هزَّت (ليلى) رأسها بعنف علامة النفي كأنها تنفض الفكرة من رأسها، ثم قالت لجارتها وهي تكمل وضع أغراضها المبعثرة في الشنطة:
ـ لا يا طنط، لقد عدت بمفردي و(شريف) ليس معي، ولقد نسيت المفاتيح.
كانت قد انتهت من إعادة كل أغراضها إلى حقيبة يدها حينما أكملت، وهي تغلق سحابها:
ـ سوف أذهب لأبحث عن أحد ليفتح الباب، وأنا لستُ حبلى،
ثم صمتت ثوانٍ، وأكملت:
ـ إن شاء الله.

هبطت درجات السلم بسرعة، منهية الحوار وسط دهشة جارتها، وفي مدخل العمارة جلست على إحدى السلالم تلتقط أنفاسها وهي تمسك صدرها في ألم، وقد أسندت رأسها إلى الحائط في إرهاق شديد، آخر ما ينقصها هو ما يحدث الآن. الساعة الآن تشير إلى الرابعة والنصف صباحًا، وحارس العمارة بالتأكيد يغط في نوم عميق، حتى وإن استيقظ من أين سيأتي الآن بأحد ليكسر باب المنزل، كما أن هاتفها المحمول نفدت بطاريته، وأمامها ثلاث ساعات على الأقل حتى تنتهي تلك المشكلة، وهي تفضل الموت على أن تقضي ذلك الوقت بصحبة جارتها.

زفرت في ضيق وهي تسأل نفسها في استنكار: كيف تنسى مفتاح منزلها؟ وأيُّ عقل يحمله رأسها يجعلها تحتفظ بمفاتيح منزل مهجور منذ أكثر من عشرين عامًا، ولا يجعلها تتأكد من وجود مفاتيح منزلها؟ ولكنه ليس منزلها فهي لم تشعر يومًا أنها تنتمي إليه ككل شيء في حياتها، لم تشعر بمتعة تجهيزه، ولا بدفء تفاصيله كما كانت تتمنى دائمًا. لم تشعر يومًا بحزن فراقه، ولا لهفة العودة إليه، حتى إنها لم تختبر فيه مع زوجها ذكرى حقيقية أثناء فترة الخطوبة، فقد قام زوجها ـ الرجل الوقور العملي والذي عمل طوال حياته كمهندس كيميائي في إحدى شركات البترول في تلك الدولة العربية ـ بتجهيز منزله من كل شيء؛ لتأتي هي وتكمل تلك اللوحة الرائعة التي أعدَّها هو مسبقًا، ولكنها بالرغم من ذلك لم تعترض.

أقنعت نفسها بأن كلَّ ذلك مجرد مظاهر لا طائل منها، أقنعت نفسها أن إحساس الأب الذي كان بارعًا فيه، وكان أكثر ما تفتقده، سيجعلها تحبه لاحقًا، وظن هو أنه سيخوض مغامرة جديدة وحياة مختلفة عن حياته الروتينية مع تلك الطفلة التي تجاوزت الثلاثين بتمردها وجموحها وتطلعاتها لتجربة كل

شيء، فظن أن ذلك الاختلاف الكبير هو ما سينجح تلك العلاقة؛ ومن هنا كان الصدام، فقد رحل الانبهار رويدًا رويدًا، وحلَّ محله الروتين الذي طالما تعوَّد عليه، فأصبحت الطفلة امرأة يجب أن تتصرف بما يليق بعمرها، وأصبح الجموح عبئًا على وقاره، وأصبح النقاش والمجادلة عيبًا في شخصيتها يجب أن تتخلص منه، ويومًا بعد يوم صمتت الحياة بينهما تمامًا، فظن هو أن تلك علامة جيدة على بداية الاستقرار، لم يكن يعلم أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، ولم يكن يدرك أنه طالما سبق انفجارها هدوءً واستسلامًا.

كانت تذبل يومًا بعد يوم، زاد انعزالها وتضخمت وحدتها، حتى ذلك اليوم، حينما استيقظت ونظرت إلى نفسها في المرآة؛ لتجد عجوزًا في الخامسة والثلاثين من عمرها، عجوزًا بلا تجاعيد ولكن بعيون ماتت الحياة بهما تمامًا. صدمتها صورتها في المرآة وأرعبها ذلك الشبح المخيف الذي كان يحاوطها ويلاحقها في كل مكان، فكسرت المرآة بيدها ولكن ذلك لم يُخِفْ العجوز أو يجعلها ترحل.

تنهَّدت (ليلى) في حزن حينما وصلت بذكرياتها إلى تلك النقطة، وهي تتحسس رسغها الأيسر بتلك النُّدبة الصغيرة، تذكرت (شريف) الذي جاء مسرعًا إليها من قوة صوت كسر المرآة، تذكرت نظراته المذهولة وهو يرى يديها تقطر دمًا، وقد ظن حينها أنها حاولت الانتحار، حاولت مرارًا أن تقنعه أنها لم تكن تحاول قتل نفسها، بل كانت تحاول قتل تلك العجوز التي احتلتها، ولكنه لم يصدقها.

وبمرور الأيام أدركت أن تلك العجوز لن ترحل أبدًا، بل هي التي يجب عليها الرحيل فورًا، من هنا بدأت النهاية، من هنا بدأ السقوط.

***

أفاقت من نومها على صوت والدها وهو يخبرها أنهما قد وصلا، فنظرت (ليلى) حولها في توتر، ثم ترجَّلت من السيارة في تأهب ممزوج بحماس، وهي تطوف بعينيها في المكان الذي تركته منذ سنوات بعيدة، ولكنه لم يتركها أبدًا، ترجَّل السائق ليسند والدها ويساعده في السير، بينما اتكأت هي على عصاها وسارت في بطء وهي تنظر إلى ذلك المسجد الذي يقف في الساحة الكبيرة، شامخًا بالرغم من مرور كل تلك السنوات على بنائه، فشعرت برجفة وقد عاودها إحساس رؤياها بقوة، ولكنها ما لبثت أن استدارت ونظرت إلى شارعهم من الخارج. نظرة امتلأت بالحزن ما إن وقعت عيناها عليه، حزن تضاعف حينما وقعت عيناها على منزلهم، كان حال الشارع في منتهى السوء، ولم يكن حال المنزل من الخارج بأفضل منه؛ فالمنازل أصبحت متهالكة قديمة والأرصفة مكسَّرة، والأرض غير مستوية على الإطلاق، ممتلئة بالمرتفعات والحُفر، والقمامة في كل مكان تقريبًا. كانت أمها تفصلها تمامًا عن ذلك العالم، فكانوا مختلفين عن جميع من يحيا به، فكريًا وثقافيًا واجتماعيًا، ولكن لا ينفي ذلك حقيقة أنهم كانوا جزءًا من ذلك العالم. تساءلت بداخلها في حزن مختلط باشمئزاز: "كيف كانوا يعيشون هنا؟ كيف كانوا يتحملون كل ذلك القبح؟ بل كيف استطاعوا أن يتأقلموا كل تلك السنوات"؟ لم تكن تظن أن الحال أصبح بذلك السوء أبدًا، أو ربما كان كذلك بالفعل ولكنهم لم يلاحظوا؛ لأنهم كانوا جزءًا منه، ربما هي حقيقة الاشياء التي لا ندركها إلا حينما نتركها، وتصبح نظرتنا لها محايدة تمامًا، ربما هي نعمة الله علينا حينما يعطينا القدرة على تحمل أشياء لا ندرك مدى بشاعتها إلا حينما نتخلص منها، ولكن الأكيد أنها حينما خرجت من الدائرة أصبحت ترى جميع جوانبها بمنتهى الوضوح.

سارت في بطء وحرص كي لا تقع، حتى لحقت بأبيها ووصلا إلى باب المنزل الرئيسي والذي كان يقع في زقاق صغير بالكاد يتسع لسيارة، ذلك الباب الحديدي الذي كان بمثابة حاجز منيع بينهم وبين الاختلاط بجيرانهم، ذلك الباب المغلق دائمًا عكس باقي أبواب الشارع المفتوحة دائمًا طوال الليل والنهار.
أخرجت المفتاح من حقيبتها وفتحت الباب الذي امتنع في البداية، ولكنه ما لبث أن رضخ وانفتح مصدِّرًا صوتًا عاليًا كأنه يرحب بأصحاب المكان..
دقائق وكانا قد وصلا إلى شقتهم، فسبقت أباها؛ لتعد له مكانًا للجلوس، ولكنها ما إن دخلت إلى المنزل حتى شعرت برهبة قوية وقشعريرة شديدة تجتاحها من تلك الرائحة العطنة المختنقة بأتربة تعلو كل شيء.
أجلست أباها لتبدأ تخطو في ذكرياتها بهدوء، لم يكن المكان بالسوء الذي ظنته (ليلى)، وربما حرص أبناء عمتها على الحضور إلى المنزل سنويًا لفتحه، وعمل ختمة قرآن في ذكرى وفاة جدها وعمتها السنوية، جعل الأمور من الممكن تداركها، ولكنه يحتاج إلى حملة نظافة قوية، فزفرت في ضيق وهي لا تصدق كيف لم تفكر في ذلك الأمر؛ فالمنزل يحتاج إلى تنظيف وهي لا تستطيع فعل أيِّ شيء بتلك القدم المريضة، وتلك اليد التي تتحرك بصعوبة.
نظرت حولها في تفكير محاولة أن تجد حلًا مؤقتًا لمشكلتها حينما سمعت طرقًا على الباب، أعقبه صوت امرأة تتحدث في لهفة وهي تخطو إلى الداخل:
ـ حج أحمد، أنت هنا فعلًا؟
نظرت (ليلى) في حنين إلى المرأة العجوز الكفيفة التي كانت تتحسس طريقها بإحدى يديها، بينما تمسك بيدها الأخرى امرأة في أواخر الأربعينات، والتي قالت بفرحة:
ـ كفر الشيخ كلها نورت يا عمي أحمد.

تهلَّل وجه أبيها وهو يرحب بهما، قائلًا:
ـ يااااه (أم هناء) كيف حالك، تفضلي.
ثم وجَّه حديثه للمرأة الأخرى، قائلًا:
ـ كيف حالك يا (أمل)؟
ـ بخير يا عمي، حمدًا لله على السلامة.
قالتها (أمل) وهي تُجلس (أم هناء) أمها على المقعد المجاور لوالد (ليلى)، وما إن رأت الأخيرة حتى صاحت بصوت عالٍ مليء بالفرحة:
ـ (لولو).
قالتها وهي تحتضن (ليلى)ـ التي امتعضت من ذلك الاسم الذي نادتها به، إلا أنها حاولت ألا تظهر ذلك ـ بقوة وشوق لدرجة آلمت الأخيرة، ولكنها شعرت بصدق مشاعر جارتها، والتي ما إن انتهت منها حتى ذهبت إلى والدتها، ومالت عليها لتقبِّلها فاحتضنتها الأخيرة بحنان، وقالت وهي تتحسس وجهها:
ـ أنتِ (ليلي) حبيبة جدِّك، نورتِ يا غالية.
استغربت (ليلى) بشدة من جملة حبيبة جدك، ولكن (أم هناء) لم تعطها فرصة للفهم، حيث قالت:
ـ لقد جاءني جدك الحج (عبد الرحمن) في المنام منذ يومين، وأخبرني بحضورك.
عقدت (ليلى) حاجبيها في استغراب، بينما أكملت (أم هناء) حديثها، ولكن هذه المرة توجهت به إلى أبيها:
ـ كان معه (طلحة) نور عيني.
قالتها في قهر، ثم وبلا مقدمات انسابت الدموع من عينيها بغزارة، فنظرت إليها (ليلى) في حزن وشفقة، بينما تنهدت (أمل) ابنتها في نفاد صبر، ربت على كتفها والد (ليلى)، وهو يقول مواسيًا:

ـ ألف رحمة ونور على روحه.
انتفضت (ليلى) من صوت (أمل) العالي المفاجئ، وهي تشير إلى عصا (ليلى) التي تستند عليها، وتقول مغيرة الموضوع:
ـ ألف سلامة عليكِ، ارتاحي تمامًا، واتركي أمر المنزل لي.
همَّت (ليلى) بالاعتراض، إلا أن (أم هناء) سبقتها موجهة حديثها لابنتها:
ـ اذهبي حالًا يا (أمل) احضري (هبة)، وزوجة (عزت) ابن عمك وابدأوا في التنظيف فورًا.
وحينما همَّت (ليلى) بالاعتراض مرة أخرى، أسكتتها (أم هناء) قائلة كأنها تراها:
ـ ولا كلمة واحدة يا (ليلى)، إنها وصية جدك.
شكرتها (ليلى) وهي تنظر إليها باستغراب دون أن تفهم شيئًا، كانت (أم هناء)، و(طلحة) ابنها المتوفى من أوائل من رأتهم في رؤياها، وبالتأكيد استقبالها لهم الآن له معنى كبير، ولكن ما علاقة جدها بالأمر؟ إنها لم تر جدها لأبيها، فقد توفي قبل أن يتزوج أبوها من أمها بسنوات، وقبل ولادتها بأكثر من خمسة عشر عامًا، ثم ما معنى كلمة حبيبة جدك التي قالتها (أم هناء)، وما الذي تقصده بوصية جدها؟ فجدها لم يرها، ولا يعرفها من الأساس.
همَّت (ليلى) أن تستفسر من تلك السيدة العجوز عن كل ما يدور بخلدها، ولكن قاطعتها عودة (أمل) السريعة وبصحبتها امرأتين أخريين واللتين رحبتا بها وبأبيها بحرارة كأنهما يعرفانها جيدًا، ثم بدأ ثلاثتهم بالعمل فورًا في المنزل، بينما ظلت (أم هناء) تتجاذب أطراف الحديث مع والدها تقصُّ عليه مرارًا وتكرارًا رؤيتها لأبيه الحاج (عبد الرحمن) في المنام، وكلما تأتي على سيرة (طلحة) ابنها تبكي بحرقة. ظلت (ليلى) تنظر إلى (أم هناء) في شفقة مما

أصبحت عليه، لقد تمكَّن منها العجز بقوة فتجعَّدت ملامحها بشدة، وابيضت عيناها حتى إنها لم تعرفها للوهلة الأولى حينما جاءت إليهم، تتذكرها جيدًا فتلك المرأة كانت من أقرب جيرانهم إلى قلب أمها، وكانت بالفعل سيدة عظيمة تحب الجميع وتخدم الجميع، ولكن وفاة (طلحة) ابنها غرقًا في إحدى الترع كسرها نصفين، فلم تعد كما كانت أبدًا.

تتذكر(ليلى) ذلك اليوم جيدًا كأنه البارحة، حينما تأخر(طلحة) ذا الثلاثة عشر عامًا يومان دون أن تعلم أمه مكانه، وهي تقف على ناصية الشارع تنتظره في لهفة، وصوت دعائها العالي يخترق القلوب، حتى علمت أنهم عثروا عليه طافيًا بعد أن غلبته مياه الترعة وعمقها فمات غريقًا. كان مشهد وصول جثمانه إلى حيهم مشهدًا مهيبًا، لم يختفِ من ذاكرة (ليلى) حتى الآن.

أخرج صوت (أمل) المزعج والعالي (ليلى) من ذكرياتها وهي تناديها لتسألها عن شيء ما، فذهبت إليها (ليلى) وهي مبتسمة من تلك المزعجة التي بدأت بها يومها، حينما سألتها (أمل) بفضول لم تستطع إخفاءه، وهي تشير إلى تلك العصا التي تستند عليها (ليلى):

ـ سلامتك يا (لولو)، حادثة؟

ابتسمت (ليلى)، وهي تجيبها:

ـ لا يا (أمل)، عملية جراحية.

قطبت (أمل) بين حاجبيها في عدم فهم، وكادت أن تسأل سؤالًا آخر، إلا أن (ليلى) قالت منهية الحوار بطريقة أثارت فضول الأولى أكثر:

ـ الموضوع كبير، سأحكي لكِ فيما بعد كل شيء بالتفصيل.

ثم تركتها، وأخذت تتنقل بين النسوة الثلاث في بقية أرجاء المنزل محاولة أن تساعدهن في أيِّ شيء تقدرعليه.

سرى خبر وصول الحاج (أحمد) وابنته في الحي، فتوافد عليهما الجميع مرحبين، وفي أقل من ساعة كان هناك ما يزيد عن خمس نساء يساعدن في تنظيف المنزل، ومع اقتراب أذان المغرب كن قد انتهين تمامًا من تنظيف كل شبر في المنزل، فعاد كل شيء تقريبًا كما كان وأصبح المنزل صالحًا للحياة مرة أخرى.

كانت(أمل) آخر الراحلين بعد أن أحضرت إلى (ليلى) وأبيها صينية مليئة بالطعام؛ ليتناولا الغذاء، فشكرتها (ليلى) بحرارة وخجل من كل ذلك المجهود الذي بذلته هي وبقية النساء، وقامت بمصاحبتها حتى الباب، وما إن رحلت (أمل) وأغلقت (ليلى) الباب خلفها حتى نظرت إلى والدها وهي تزفر في خلاص فضحك والدها، وقال معلقًا:

ـ مزعجة طوال عمرها.

ضحكت (ليلى) من تعليق أبيها، ثم قالت له وهي تتجه إلى الحمام:

ـ سآخذ حمامًا سريعًا، ثم أعود إليك لنتناول الطعام.

في الحمام وقفت تحت المياه الدافئة باستمتاع تزيل عن جسدها عرق وإرهاق اليوم بأكمله وهي ممتنة بشدة لـ (أمل) المزعجة و(هبة) وبقية النساء اللاتي لا تتذكر أسمائهن على الإطلاق، واللاتي جئن إليها نجدة من السماء؛ فلولاهن ما كانت لتقف الآن مستمتعة بذلك الماء الدافئ، وذلك الهدوء الجميل.

تذكرت (أم هناء) وما قالته عن جدها؛ فقررت أنها سوف تستفسر منها غدًا عما كانت تقصده، ولكنها شعرت بالحزن الشديد من أجلها، فلقد أخبرتها (أمل) أن أمها قد فقدت بصرها من كثرة البكاء على (طلحة) أخيها، حيث كانت المسكينة تبكيه ليلًا نهارًا، صحوًا ومنامًا، فبدأ بصرها يضعف رويدًا رويدًا حتى انطفأ نور عينيها تمامًا حزنًا عليه، وبالرغم من ذلك لم تتوقف يومًا عن البكاء عليه حتى يومنا هذا.

انتهت (ليلى) من الاغتسال، وخرجت إلى أبيها سريعًا حيث تناولا الطعام في هدوء، وهما يتجاذبان أطراف الحديث حول (أم هناء)، ويضحكان كلما جاء اسم (أمل) في الحوار، وحينما انتهيا أعطت لأبيها الدواء وساعدته في الخلود إلى فراشه، ثم ذهبت إلى حجرتها والتي ما إن دخلتها ونظرت في أرجائها شعرت براحة شديدة.

كم تفتقد تلك الحجرة وذلك الفراش، كم تفتقد خزانة ملابسها وحوائطها التي كانت مليئة بأثار صور المطربين وأفيشات الأفلام الأجنبية، حتى تلك النافذة الصغيرة والتي لا يوجد سواها في الحجرة كانت تفتقدها، وتفتقد شعاع الشمس الرفيع الذي كان يدخل منها، فيملأ الغرفة حياة. بدأت في ترتيب ملابسها وأغراضها، وهي تفكر: لماذا كل ذلك الحنين الذي يجتاحها ويملأ روحها إلى تلك الأيام؟ ولماذا تشتاق بكل ذلك القدر إلى حياتهم هنا؟ ألم تكن هي أول الداعين لترك هذا المنزل والانتقال إلى آخر جديد؟ ألم تكن هي أول المتأففين من ذلك الحي؟ لماذا إذًا كل ذلك الشعور بالافتقاد لكل تفاصيل حياتها هنا؟ هل فقدت الأمل في مستقبلها لتلك الدرجة حتى لم يعد لديها سوى الماضي بهدوئه وذكرياته وبرائته لتحيا فيه؟

أغلقت خزانة الملابس بعد أن انتهت من وضع كل أغراضها بها، وبينما كانت تضع الحقيبة الفارغة أسفل الفراش شعرت أن شيئًا ما يعيق دخول الحقيبة بالكامل؛ فانحنت بحرص لتجد أسفل الفراش ذلك الصندوق الكرتوني متوسط الحجم قابعاً في سكون، فأخذت تزحزحه ببطء بمساعدة عصاها حتى استطاعت أن تخرجه من أسفل الفراش، ثم افترشت الأرض أمامه، وما إن فتحته حتى فغرت فاها، ودمعت عيناها وهي تتحسس محتوياته.

كان ذلك الصندوق يحوي أهم ملامح ذكريات المرحلة الإعدادية، فقد كان يرقد به كل روايات الجيب التي كانت منتشرة بقوة في ذلك الوقت. أعداد كاملة من سلسلة رجل المستحيل، وملف المستقبل، وما وراء الطبيعة، ابتسمت وهي تتذكر أنها كانت دائمًا ما تخبئها بين صفحات كتبها المدرسية كي لا تعرف أمها أنها تقرأ في الوقت المخصص للمذاكرة.

أمسكت (ليلى) بإحداهن في حنين مختلط بحزن وهي تستعيد ذكرى ذلك اليوم السخيف الذي ترك أثرًا في نفسها لم تستطع أن تُمْحيه الأيام، حينما ضبطتها أمها وهي تخبئ إحدى تلك الروايات بين صفحات كتبها المدرسية متصنعة المذاكرة، وكان العقاب أن قامت أختها الأكبر منها بتمزيق كل رواياتها الحبيبة، كي لا تعود إلى هذا الفعل مرة أخرى، وبالفعل بدأت في تمزيقهم واحدة تلو الأخرى.

ظلت تتطلع إلى أختها بعيون كارهة وشفاه مرتجفة، ولكنها لم تذرف دمعة واحدة، فقد انتظرت حتى انتهت أختها من تمزيق كل الروايات ورحلت، بعد أن تركتهم كالجثث المذبوحة على أرض الغرفة، وهنا أغلقت (ليلى) خلفها الباب بالمفتاح وانهارت في البكاء وهي تقوم بتجميع أشلاء رواياتها وأبطالها، تكاد تسمع صراخهم، وظلت على مدار أسبوع تحاول لصق الصفحات مرة أخرى حتى استطاعت أن تعيدهم، ولكنهم أضحوا مشوهين تمامًا مثلها بعد ذلك اليوم.

ابتسمت (ليلى) في شجن ـ وهي تلمس بأطراف أناملها تلك الروايات ـ من الذكرى التي ظنت في وقت ما إنها نسيتها تمامًا، ولكن الحقيقة أننا لا ننسى أبدًا، فكل ما يؤلمنا يظل مختبئًا ساكنًا في جدار القلب منتظرًا إشارة بسيطة؛ ليظهر مجددًا في هيئة أخرى.

لذلك ولأنها قررت ألا تجعل شيئًا يفسد عليها أيَّ شعور جميل تشعر به اليوم أعادت الصندوق إلى مكانه، وتناست تلك الذكرى تمامًا وهي تتناول دوائها، وتدخل في حنين إلى فراشها تسبقها ابتسامة هادئة، وما إن وضعت رأسها فوق الوسادة حتى نامت بلا أيِّ مقدمات، وبلا أيِّ مهدئات، نامت فورًا دون أن تفكر في شيء أو يؤرقها شيء، نامت (ليلى) تلك الليلة، كما لم تنم منذ عشرين عامًا.



(من جمال الحياة أن اللّٰه يبعث في طريقك ما يوقظك بين الحين والآخر، أنت الذي ظننت لوقت طويل أنك مستيقظ).

مولانا جلال الدين الرومي..

الليلة الثانية

ظلام حالك لا يقطعه سوى ضوء أبيض يأتي من بعيد بالكاد يجعلها تميز ملامح ما حولها، وهي تنظر في استغراب وخوف، وتتساءل بداخلها: ما الذي أتى بها إلى تلك المنطقة النائية المهجورة؟ وماذا تفعل هنا في قلب الليل وحدها؟ بدأت في السير بخطوات مرتعشة فالطريق غير ممهد على الإطلاق، مليء بالأحجار الصغيرة، وعلى جانبيه فراغ ممتد إلى ما لا نهاية، ولكنها تشعر بألفة غريبة كأنها كانت هنا من قبل.

على مرمى بصرها على الجانب الآخر من الطريق ترى ذلك المنزل الوحيد المكون من طابقين، ونداء بداخلها يخبرها أن ذلك المنزل هو وجهتها، يفصلها عنه جسر مظلم، بدايته ونهايته مبتورتان، وبالرغم من ذلك تمر من فوقه بين كل دقيقة وأخرى سيارة مسرعة؛ فيزيد استغرابها وهي تتساءل: كيف تصعد تلك السيارات إلى ذلك الجسر، وإلى أين تذهب وتختفي؟ تستمر في السير بحذر خوفًا من أن تقع، فلا يمنعها حذرها من التواء إحدى قدميها كل بضعة خطوات.

ينقبض قلبها بقوة حينما تمر من أسفل ذلك الجسر، وهي تشعر أنه سيتهاوى فوق رأسها في أيِّ لحظة فتسرع خطاها. تشعر بألم شديد يجعلها تنتبه للمرة الأولى أنها حافية القدمين، ثم فجأة وجدت نفسها بداخل ذلك المنزل، وقفت تلتقط أنفاسها وهي تنظر حولها؛ فمدخل المنزل مخيف مقبض، حوائطه متهالكة وسلالمه مكسَّرة، ولكنها بدأت الصعود في حذر، وذلك الإحساس بالألفة يزداد مع كل درجة تصعدها، حتى وصلت بأعجوبة إلى الطابق الثاني، وحينما وقفت أمام الباب الوحيد الموجود في ذلك الطابق لم تعد تفهم شيئًا؛ فذلك هو

باب منزلهم القديم الذي ولدت وتربت فيه، ولم تتركه إلا في منتصف المرحلة الثانوية. كان الطابق مضاءً بالكامل، فاقتربت من الباب وطرقته بهدوء وهي تتساءل في استغراب: كيف أصبح حيُّهم القديم مهجورًا هكذا؟ وكيف ساءت حالة منزلهم إلى هذه الدرجة؟

قطع تساؤلاتها صوت فتح الباب فتأهبت، ولكنها ما لبثت أن تراجعت للخلف خطوتين حينما رأت تلك العجوز تسألها ماذا تريد، حاولت أن تتحدث، ولكن لم يخرج صوتها، وقد أدركت توًّا أنها لا تعرف ماذا تريد؛ ولا لِمَ جاءت إلى هنا من الأساس؛ وحينما وقعت عيناها على تفاصيل المنزل خلف المرأة فغرت فاها.

إنه هو بالفعل، منزلهم القديم ولكن بحالة مزرية، عقدت حاجبيها في استغراب وهي تنظر لتلك الفتاة الجالسة على أريكتهم ذات الطابع العربي تنظر إليها بابتسامة مستفزة، هي تعرف تلك الفتاة، إنها (نهلة) صديقتها في المرحلة الإعدادية، لم تحب أمها تلك الفتاة مطلقًا، وكانت دائمة الشجار معها بسبب صداقتهما.

ماذا تفعل (نهلة) هنا؟ ولماذا تجلس بداخل منزلهم بتلك الأريحية كأنه منزلها، بينما تقف هي بالخارج لا تستطيع أن تخطو داخله خطوة واحدة؟

انتفضت من تساؤلاتها على صوت المرأة العجوز، وهي تطلب منها بغضب أن ترحل؛ فتراجعت للخلف عدة خطوات دون أن تدرك أنها قد استقرَّت فوق فراغ لم تره، فبدأت تهوي منه، بينما تمزق جسدها تلك الأسياخ الحديدية التي تبرزمن حولها. العجيب أنها لم تصرخ، وكل ما كانت تفكر فيه أين ستذهب الآن؟ وكيف ستعود كل هذا الطريق مرة أخرى؟ ولماذا تشعر أنها تهوي من الطابق العشرين، وليس الطابق الثاني؟

كانت تهوي وهي مغمضة العينين تشعر بخوف رهيب وآلام مرعبة، وكلما حاولت التشبث بإحدى تلك الأسياخ الحديدية انخلع في يدها، وانهار معها حتى انغرز أحدهم فجأة في قلبها مباشرة؛ فصرخت في رعب وألم.

في دهب..

انتفضت من نومها في رعب وهي تشهق شهقات فزعة؛ فقد تسارعت أنفاسها وانساب العرق غزيرًا من كل جسدها بالرغم من جو الغرفة البارد. مسحت بيدها على رقبتها، ثم وضعتها على صدرها تتحسس موضع قلبها، لتتأكد أنه لا أثر لأيِّ دماء، حينما تذكرت ذلك السيخ الحديدي وهو يخترق قلبها مباشرة.
اعتدلت جالسة وهي تضيء المصباح الصغير الموضوع بجوار الفراش، وقد بدأت أنفاسها في الانتظام شيئًا فشيئًا، بينما ما زالت يدها على قلبها كأنها تطمئنه أنه بخير، وأن كل ما مضى كان فقط كابوساً بشعاً، نظرت حولها لعدة ثوانٍ، حتى أعاد عقلها ترتيب الأحداث وتذكرت أنها الآن في تلك الغرفة المطلة على البحر مباشرة في فندق بسيط لا تتذكر حتى اسمه في مدينة (دهب) بمحافظة جنوب سيناء، نظرت حولها مرة أخرى تبحث عن أيِّ شيء يشير إلى الوقت؛ فوقعت عيناها على ساعة حائط معلقة في مواجهة الفراش؛ لتتسع عيناها في دهشة حينما اكتشفت أن الساعة قد تعدت الثالثة والنصف صباحًا.
بدأت ترتب الأحداث منذ آخر شيء تتذكره؛ فهي لم تنتظر حارس العقار أن يستيقظ، بل حملت حقيبة يدها وانطلقت إلى الشارع. كانت السماء قد بدأت هي الأخرى في الاستيقاظ، وبدأت خطوط النهار تتجمع ببطء لتضيء الشوارع بالقدر الكافي للرؤية والأمان؛ لذلك تركت (ليلى) نفسها لخُطاها وهي تنظر إلى السماء في هدوء دون أن تحدد اتجاهاً معيناً.

ملأت رئتيها بهواء الغسق البارد وهي تسير في هدوء، وقد نسيت جارتها الثرثارة وسلسلة المفاتيح التي نسيتها، بل إنها نسيت ما خرجت لتبحث عنه وهي تنظر حولها في استمتاع للشوارع الفارغة من البشر والسيارات، وضوء النهار الذي بدأ يتسلل إلى قلبها المرهق من كل شيء، وهي تفكر أنها تحتاج أن تبتعد تمامًا، تحتاج لهدوء تام لتعيد ترتيب داخلها وعزلة تستطيع أن تنهار فيها كما ينبغي، دون اتصالات والدتها أو ثرثرة جارتها، تحتاج أن تترك كل شيء وتسافر فورًا مبتعدة تمامًا عن الجميع.

عرفت أن القدر وافقها بقوة على قرارها، حينما رأت سيارة أجرة تقترب منها، فأشارت إلى سائقها ودلفت إلى داخلها بسرعة كأنها تخشى أن تتراجع عن قرارها، وفي أقل من خمسة عشر دقيقة كانت في مكتب حجز تلك الشركة المعروفة للنقل والسياحة بميدان "عبد المنعم رياض"، لم تكن تعرف وجهتها أو إلى أين ستذهب، حتى إنها لم تنتبه أنها بلا حقيبة ملابسها إلا وهي تستقل الحافلة المتجهة إلى مدينة (دهب)، ولكنها لم تبالِ، كأن هناك شيئًا ما يدفعها دفعًا للرحيل، وكانت منساقة فقط لإحساسها.

وفي تمام الرابعة عصرًا كانت تلقي بنفسها فوق الفراش في تلك الغرفة، وما هي إلا ثوانٍ حتى غطت في نوم عميق غريب لم تستيقظ منه سوى الآن.

زفرت (ليلى) في ضيق من ذلك الألم الذي ما زال يحتل صدرها، وهي تتناول حقيبة لتخرج دواءها، وذلك المسكن الذي لم يعد يفارقها على مدار الشهور الثلاثة الأخيرة، حينما لمحت اختبار الحمل الذي ابتاعته قبل الصعود إلى الحافلة؛ فتناولته وسارت بوهن إلى الحمام، وفي الحمام وبعد أن أخذت دواءها وقضت حاجتها على ذلك الاختبار، جلست تنظر إليه وهي تهزُّ قدميها في ملل، وتلعن جارتها وهي تفكر في كل الاحتمالات الممكنة.

ماذا لو كانت النتيجة إيجابية وأنها بالفعل حبلى؟ هل ستتراجع عن قرار الطلاق وتعود مرة أخرى إلى زوجها؟ أم ستصرعلى قرارها وتربي الطفل بمفردها؟ ولماذا لا تتخلص منه قبل أن تدب به الروح فتكفيه شر حياة بائسة وأم أكثر بؤسًا؟

ظلت عيناها معلقتان بذلك الجهاز، ومشاعرها ممزقة بين ما تريده وما تخشاه، ولكن ما هي إلا لحظات حتى انتهى كل توترها وحيرتها تمامًا؛ فقد جاءت النتيجة سلبية فابتسمت في حزن وهي تلقي به في سلة المهملات وتخرج مسرعة من الحمام. النتيجة طبيعية ومعروفة، فهي غير قادرة على أن تحمل بداخلها أيَّ حياة.

خرجت إلى شرفة الغرفة، والتي لا يفصلها عن البحر سوى بضعة أمتار، وتنفست بعمق وهي تنظر حولها لتستكشف المكان لأول مرة، كان الظلام يلف كل شيء لا يقطعه إلا إنارة تابعة للفندق جاءت من بعيد، كل شيء هادئ صامت، حتى البحر كانت أمواجه تضرب الصخور المتناثرة على الشاطئ بهدوء ورفق، كأنه لا يرغب في إيقاظ النُّزلاء، لم يقطع هذا الهدوء سوى دقات ساعة الحائط الرتيبة التي أصبحت واضحة جدًا، ولأول مرة لم تنزعج من ذلك الصوت، فأحيانًا ما كنا نرفضه ونحاربه باستمرار يصبح هو الشيء الوحيد المتبقي لنا، أحيانًا ما كان يزعجنا يصبح هو الشيء الوحيد الذي يشعرنا أننا ما زلنا على قيد الحياة. وقد أصبحت تلك الدقات الرتيبة المملة هي الشيء الوحيد الذي يشعرها أن في هذه الغرفة حياة.

***

فتحت (ليلى) عينيها فجأة دون مقدمات، مثلما نامت دون مقدمات، بينما كان أذان الفجر يتردد جليًّا صافيًا.

نظرت في ساعة هاتفها المحمول لتجدها الرابعة فجرًا، فتثاءبت في كسل وهي تمط ذراعيها للأمام، ثم وبطريقة رتيبة تحسست بيدها جُرحها الطويل والعميق كعادتها مؤخرًا، تحسسته بحرص ورهبة كأنه ما زال مفتوحًا، بالرغم من تحسن حالتها بشكل كبير، إلا أن ذلك الجرح كان وما زال مصدر قلق وتوتر دائمين بالنسبة لها، انتزعت نفسها من هواجس ذلك الجُرح، ودون تفكير نهضت لتتوضأ وتصلي كأنها معتادة على ذلك الفعل منذ زمن.

ـ الله أكبر.

قالتها بلهفة ومناجاة، قالتها بقلبها وكأنها لأول مره تشعر بروعة تلك الكلمة العظيمة، وكأن بها ملاذها الأخير، ثم بدأت في الصلاة، وكأنها تصلي للمرة الأولى في حياتها، شعرت بلذة عجيبة وبقرب غريب.عرفت في تلك الصلاة بالتحديد معنى كلمة أن (تعبد الله كأنك تراه)، فلقد كانت بالفعل تشعر بوجود الله أمامها، وكأنه عز وجل ترك الخلق أجمعين، وجاء إليها هي فقط ليربت على قلبها المريض وروحها التائهة، فصلت بخشوع زادت حلاوته تلك الدموع المالحة التي انهمرت من عينيها بلا سبب.

أطالت في الركوع والسجود، ولكنها كانت صامتة كأنها في أحضان دافئة مليئة بالأمان، فلم يكن من عادتها الدعاء الكثير أثناء الصلاة أو خارجها، بل إنها كانت تتعجب في غيرة من أولئك الذين يسجدون لفترات طويلة تصل إلى آذانها همساتهم في حوارهم الخاص مع الله، ولكنها أبدًا لم تجد ما تقوله، كأنها تعودت على الصمت حتى مع الله؛ فأصبحت لا تفقه سوى لغة القلوب، هي دائمًا على يقين أن الله يسمع قلبها، فلم تكن تقول سوى(يارب) ثم تصمت، ولكن هذه المرة حتى الصمت كانت له لذة عجيبة تسربت إلى روحها؛ فزادت من انهمار دموعها.

انتهت صلاتها ولكن لم تنتهِ دموعها، فظلت جالسة في مكانها حتى بدأ نور الشفق يتسلل إلى الشقة وإلى روحها؛ فقامت أخيرًا من جلستها بعد أن هدأت تمامًا وغسلت وجهها، ثم أعدت كوبًا من القهوة ووقفت في الشرفة الكبيرة التي تطل على الشارع، كان الجو هادئًا ساكنًا إلا من أصوات العصافير التي شعرت للمرة الأولي أنها تفهم لغتها؛ فابتسمت وهي تنظر إلى السماء وتفكر، وماذا بعد؟ لم تكن تعرف ما هي خطوتها القادمة؛ فها هي تقف في شرفة منزلهم الذي شهد أجمل ذكرياتها، ها هي قد جاءت بكامل إرادتها الحرة إلى آخر مكان كانت تظن أن قدميها ستخطوه مرة أخرى.

نظرت في شرود إلى ذلك المسجد الواقف في شموخ، كأنها تنتظر منه رسالة، كأن هناك من سيخرج منه ويخبرها ما الذي يجب عليها فعله الآن، حتى أخرجها من شرودها صوت (أمل) المزعج من أسفل شرفتها، وهي تقول:

ـ صباح الخير يا لولو، هل تريدين شيئًا من السوق؟

ـ صباح الخير.

قالتها (ليلى) وهي مبتسمة، ثم أكملت قائلة في امتنان:

ـ شكرًا يا (أمل).

ثم وكأنها تذكرت شيئًا، فتراجعت قائلة:

ـ حسنًا، انتظري سوف آتِ معكِ.

وبعد أقل من عشر دقائق كانت تسير بجوار(أمل) في الشارع، فقد انتهزتها فرصة لتبتاع بعض الخضروات والأشياء التي يحتاجها المنزل. سارت باستمتاع في ذلك الوقت صبيحة يوم الجمعة، وهي تستعيد ذكرياتها، كانت شبه معتادة بصفتها أصغر من بالمنزل على النزول صبيحة الجمعة لشراء الخبز الطازج

والطعمية الساخنة؛ لتعود إلى أمها وأخواتها اللاتي يستيقظن لتحضير طعام الإفطار؛ فيتناولون جميعًا الإفطار قبل ذهاب أبيها لأداء صلاة الجمعة.
في الماضي كانت تتأفف من ذلك الروتين الأسبوعي، ولكنها الآن تسير سعيدة كأنها في نزهة، وعندما انتهت من شراء كل ما تحتاجه، استأذنت (أمل) أن تحمل المشتريات معها إلى منزلهم، وهي ستلحقها بعد قليل فقد أرادت أن تسير بمفردها قليلًا دون ثرثرة الأخيرة المزعجة، أرادت أن تسير هكذا بغير هدى تاركة لقدميها زمام الأمور؛ لتنظر إلى أين ستصل بها تلك المرة؛ فقد أصبحت مؤخرًا تثق بجسدها وقلبها أكثر من أيِّ شيء آخر؛ ففي كل مرة كانت قدماها تأخذها لمصير جديد أو رسالة جديدة، إذًا لترى إلى أين ستأخذها الآن؟

***

في دهب...

ثلاثة أيام لم تفارق (ليلى) غرفتها، ثلاثة أيام لم تأكل شيئًا يُذكر، ولم تشرب سوى المياه والقهوة، حتى هاتفها المحمول لم تتفقده منذ آخر مكالمة مع والدتها، فقد وضعته علي الوضع الصامت بعد تلك المكالمة التي صرخت بها والدتها وطالبتها بالرجوع فورًا، ولكنها صممت على البقاء، وها هي الآن تسير ببطء في ممشى(دهب) السياحي تحمل في يدها بضعة أكياس بلاستيكية تحتوي على بعض الملابس الخارجية والداخلية، فقد جاءت دون حقيبة ملابسها وهي لا تنوي العودة قريبًا؛ لذا ابتاعت أشياءً بسيطة، ثم تركت قدميها تتجه ناحية البحر وهي شاردة لا تفكر في شيء.
تأزمت ملامحها وهي تفكر أن أمها لم تحاول مجرد التحدث معها بهدوء، لم تحاول الاستماع إليها أو تطيب خاطرها، لم تحاول أن تحتويها وتخبرها أنها بجانبها أيا كان قرارها، ولم تشعر بحزنها وألمها، هي فقط انفجرت فيها متهمة إياها بأن

تصرفاتها تلك ليست بالشيء الجديد عليها، وأنها لن تفلح في شيء طوال حياتها طالما أنها لا تستشير أحداً في قراراتها، وأنها، وأنها، وأنها...

سيل من الكلمات اللائمة والهجوم غير المبرر لا تتذكره؛ لأنها لم تسمعه من الأساس، أعقبه إغلاق والدتها للهاتف دون سلام بعد أن قالت لها إنها لن تتغير أبدًا، وستظل هكذا شاردة تائهة؛ وربما كان ذلك أصدق ما وصفتها به والدتها، فقد بدأت رحلتها في التوهان منذ زمن بعيد.

لم تنس ذلك اليوم مطلقًا وهي في السابعة من عمرها حينما تركت يد أمها في طريق العودة من المدرسة وتاهت لأول مرة في حياتها. كان يوم خميس، اليوم الأسبوعي المخصص لإقامة سوق الخضروات والفاكهة، وكان الطريق مزدحمًا بشدة، وكانت أمها تُحكم إمساك يدها دائمًا، إلا تلك المرة التي تركتها في لحظة ربما كانت فيها الأخيرة شاردة، أو كانت تفكر بتركيز شديد ما الذي ينقصها من متطلبات المنزل، حينما سحبت (ليلى) يدها، لتشير إلى بائعة التوت، وكم استغربت من السهولة التي تخلت بها يد والدتها عن يدها، فأسرعت الخطى لتسبق أمها إلى بائعة التوت، ولكنها وقفت أمام بائع الألعاب الذي كان يأتي كل خميس فقط محملًا بألعاب جديدة، وألوان مبهجة ودنيا أخرى.

أشياء كانت بالنسبة إليها غير موجودة إلا في عالم الخيال الذي تحيا فيه باستمرار؛ لذلك كانت مأخوذة بكل شيء تقع عيناها عليه. الألعاب البلاستيكية رديئة الصنع، الحلويات الملقاة في الهواء الطلق دون غطاء، الطيور التي كانت تطل برأسها فقط من محبسها، حتى الخضروات والفاكهة وطريقة ترتيبها وتناسق ألوانها، فظلت هكذا تسير وحيدة بزهو وجرأة، لا يلتفت إليها أحد ولا يعبأ بوحدتها أحد، حتى وصلت عند بائعة التوت الأحمر، وقفت تنظر إلى التوت بشهية طفلة ولبائعته التي تراها كل يوم في نفس المكان بردائها

الأسود المتسخ، وتلك الشامة في عينها اليسرى، وطفلها الذي لم يتجاوز السنتين بنصفه السفلي العاري دائمًا، والذي لا يتوقف عن أكل التوت وهي تفكر في استغراب ماذا إن كانت تلك البائعة والدتها؟هل كانت ستتركها تأكل من ذلك التوت الشهي دون حساب ودون غسيل؟

انتبهت من أفكارها الطفولية على صوت البائعة العالي وهي تسألها: (عايزة توت ياعسل)؟ فأومأت برأسها إيجابًا في سعادة ما لبثت أن تلاشت وهي تتذكر أنها وحيدة دون أمها، ولا تملك أيَّ نقود؛ فتجمعت الدموع في عينيها من ذلك الإحساس بالعجز الذي اجتاحها فجأة وهي تنظر إلى ابن بائعة التوت في غيظ وحسد؛ فلديه أم وصحن كبير ملئ بالتوت الأحمر الشهي.

وقفت تنظر حولها في حيرة وهي تفكر بعقل طفلة في السابعة من عمرها، أنها لا تملك نقودًا لشراء التوت، ولا تعرف كيف تذهب إلى المنزل بمفردها، العجيب أنها لم تنزعج لتلك الورطة التي ألقت بنفسها فيها، بل بدأ عقلها الصغير في البحث عن حلول بديلة بمنتهى السرعة عن طرق لتلك الحياة الجديدة التي توشك أن تبدأها مثل أن تعرض على بائعة التوت أن تعيش وتعمل معها، ربما رأتها والدتها يومًا وهي في طريقها من أو إلى العمل، وليكن راتبها حفنة من التوت كل يوم، أو أن تذهب إلى بائع الألعاب وتعمل معه؛ لتعرف أين يكون بقية أيام الأسبوع، حلول ساذجة ولكنها كانت أفضل ما توصل إليه عقلها الصغير، فقد كانت تشعر بأنها في مغامرة من مغامرات ميكي ماوس أو علاء الدين الذين تقرأ عنهم باستمرار في المجلات التي تحضرها لها أمها باستمرار.

انتشلتها من أفكارها تلك اليد التي قبضت على كتفها، فانتفضت في رعب ما لبث أن تحول إلى سعادة غامرة حينما قابلتها عين والدتها الباكية، وتلك النظرة

اللائمة التي لم تنساها طوال حياتها، لم تقل والدتها كلمة واحدة، فقط أحكمت قبضتها على كفها الصغير مرة أخرى وعادتا لهرولتهما اليومية، وحينما وصلت إلى المنزل، وقابلت عيون أبيها الغاضبة بعد أن علم بما حدث، لعنت بائع الألعاب، وبائعة التوت وكل الأشياء التي أغرتها بالوقوف أمامها، وهي تتراجع إلى الخلف في خوف محاولة شرح الأمر له، ولكنه لم يسألها عن أيِّ شيء، فقد أصدر حكمًا نهائيًا وكان من نصيبها ضربًا مبرحًا لم يزل أثره بداخلها حتى الآن، كما أنها حُبست في غرفتها، وحُرمت من خروجة كل خميس مع أقاربها.
وفي الليل وهي تحتضن وسادتها الصغيرة، وبينما كانت أمها تظنها نائمة، سمعتها تقول لأبيها بعد تنهيدة حارة: " لا أستطيع تمالك أعصابي حتى الآن، الحمد لله أنني وجدتها في ذلك الزحام".
منذ ذلك الحين، وكلما كانت تشعر بأنها تائهة كانت تتذكر تلك الحادثة وتبتسم في شفقة، فقد ظنت والدتها أنها وجدتها في ذلك اليوم وأعادتها معها إلى المنزل، وظن والدها أنها بعقابه المبرح لن تتوه مجددًا، لا يعلم والدها أنها ما زالت تائهة حتى الآن بلا أمل في العثور على نفسها، ولا تعلم والدتها أنها لم تجدها كما ظنت، وأنها لم تعد منذ ذلك اليوم، لم تعد مطلقًا.
شعرت (ليلى) بضيق ونغز في قلبها لم يكن سببه مرضه، ولا إهمالها في تناول الدواء، بل كان بسبب تلك الذكرى التي كانت تؤلمها كلما تذكرتها؛ فأشاحت برأسها بعيدًا كأنها تريد الخروج بتفكيرها من تلك الذكرى؛ لتدخل في ذكرى أشد إيلامًا حينما لمحه قلبها قبل عينيها، فأبطأت خطواتها بشكل ملحوظ وهي ترفع نظارتها الشمسية من فوق عينيها، وتنظر إليه غير مصدقة. كان هو برفقة امرأة ثلاثينية ذات شعر أصفر ناري وقوام طويل، خارجين من أحد المطاعم الموجودة على البحر مباشرة تسبقهما ضحكتها العالية، كان هو بحضوره المرهِق

لأعصابها، المؤلم لقلبها..هو (يحيى) أول من أجادت معه فن الانتظار، بينما برع هو في فن الرحيل.
التقت العينان فجأة فانتفض جسدها وارتعش قلبها، وقد ظهر على ملامحه بوضوح اضطراب المفاجأة، ولكنه كعادته لم يحرك ساكنًا، فقد أدار وجهه لرفيقته بطريقته المعتادة في التجاهل كأنه لم يرها. شعرت (ليلى) بغصة في حلقها وإهانة شديدة لكرامتها، فابتلعت لعابها في ألم وهي تكمل طريقها في حنق وخطوات حاولت أن تجعلها تبدو واثقة، وقد أعادت نظارتها الشمسية فوق عينيها لكي تخفي تلك الدموع التي تجمعت، وبدأت تتسابق في الاندفاع من عينيها، وما إن مرَّت إلى جواره وتجاوزته حتى أسرعت الخطى لتختفي من المكان نهائيًا.
لماذا الآن؟ لماذا هنا وفي ذلك التوقيت؟ كيف لم يُبكها انفصالها وانهيار حياتها بأكملها، وأبكتها رؤيته العابرة؟ ألم تنتهِ منه منذ زمن؟ ألم تنتهِ من استعباده لقلبها المريض؟ ولماذا ما يزال قاسيًا، باردًا، مهينًا، مغرورًا، متعجرفًا هكذا؟ بل كيف لرجل واحد أن يجيد كل ما يؤلم لتلك الدرجة؟
كانت تشعر بغضب هادر من كل شيء، من نفسها، وأمها، وزوجها، حتى جارتها الثرثارة، فقد ألقت باللوم على كل مَنْ جاء بها إلى هنا لتراه وتتألم هكذا. تصارع الغضب في صدرها والدموع في عينيها، لدرجة جعلتها تقف تائهة ساكنة كالتماثيل على جانب الطريق تنظر حولها في شرود، لا تقوى على تحريك قدميها، كأن هناك ما يثبتهما في الأرض، ويمنعها من الحركة حتى انتشلها هو من ذلك التيه الذي كانت تغرق فيه، وهو يقول لها بابتسامة طيبة:
ـ ركزي في الإشارة.

رجل عجوز يبدو عليه أنه تجاوز الستين من عمره، ذو بشرة قمحية اللون ولحية بيضاء خفيفة، وابتسامة رائعة طيبة كأنها حُفرت ضمن ملامحه، نظرت إليه وهي تتساءل بداخلها في استغراب عن أيِّ إشارة يتحدث؟ فلا يوجد هنا أيُّ إشارات مرور، ولماذا تشعر أنها رأته من قبل؟

كادت أن تتبعه لتفهم منه ماذا يقصد، ولكنها وقبل أن تخطو خطوة واحدة تراجعت إلى الخلف منتفضة على صوت مكابح دراجة نارية تأتي من بعيد، ويبدو بوضوح أن سائقها لم يستطع السيطرة عليها فأخذ يسير بها في خطوط متعرِّجة وسرعة عالية، مقارنة بهدوء ذلك الشارع حتى مرَّ من أمامها في سرعة؛ ليصطدم بأحد أعمدة الإنارة الموجودة على الرصيف بعدها بعدة أمتار، ثم ترتد لتصطدم بإحدى السيارات الواقفة بلا حراك.

اتسعت عيناها في ذهول وهي تنظر إلى قدمها التي كانت على وشك التحرك، ثم إلى الدرَّاجة النارية التي انقلبت على إحدى جانبيها، بينما لم يعد لذلك الرجل الطيب أيُّ أثر في المكان، هرول كل مَنْ كان في محيط الحادثة إلى مكان ارتطام الدراجة النارية، أما هي فلم تكن قد استوعبت بعد كل ما حدث، وقد طغى صوت إنذار السيارة على كل شيء حولها، حتى بدأ يقل ويبتعد تدريجيًا.

***

صوت صافرات إنذار القطار تعلو بانتظام لتخبر الجميع باقتراب مرور القطار من ذلك المكان، بينما كانت تلك الإشارة الحمراء تضيء وتنطفئ كزيادة تنبيه لأولئك المغامرين الذين يصرون على عبور قضبان القطار بالرغم من كل تلك الإنذارات، والتي كانت (ليلى) منهم في يوم من الأيام.

اقتربت من جانب المزلقان وهي تشك في أنها ستجده، ولكنها ما لبثت أن ابتسمت في سعادة حينما رأته في نفس مكانه المعتاد منذ عشرين عامًا، بتلك

المائدة الخشبية القديمة المرصوص عليها كل الصحف والمجلات وبعض الكتب، إنه عم (محمد) بائع الجرائد المشهور باسم (محمد أبو دراع) - فقد كانت يده اليمنى مبتورة- والذي اعتادت أن تبتاع منه الكتب والجرائد.

وقفت أمامه مباشرة وألقت عليه التحية وهي تنظر إلى ملامحه التي طالها العجز، وجسده الذي أصبح هزيلًا جدًا، ثم مدت يدها وأخذت مجموعة الجرائد التي يفضلها والدها وأعطته النقود؛ فابتسم لها في طيبة وهو يعيد إليها بقية الحساب ومعها كتاب قديم، وهو يقول:

ـ وهذا، هدية يا ست (ليلى)..

نظرت إليه في عدم تصديق، وهي تسأله بفرحة:

ـ ما زلت تتذكرني يا عم (محمد)؟

فأجابها العجوز ضاحكًا:

ـ ومن يستطيع أن ينسى تلك العيون الطيبة؟ ثم إن شكلك لم يتغير كثيرًا، ما زالت ملامحك طفولية، كأنك كنتِ هنا البارحة.

ضحكت (ليلى) بسعادة وهي تتناول منه الكتاب الذي كان عبارة عن مجموعة قصصية للكاتب (يوسف السباعي) كاتبها المفضل، ووقفت تتحدث معه قليلًا، ثم ودعته على وعد بلقاء قريب، ورحلت عائدة إلى المنزل تسبقها ذكرياتها التي اكتشفت فجأة أنها كانت بالفعل ذكريات سعيدة مقارنة بحياتها الآن.

لقد أعطتها أمها أول كتاب قرأته في حياتها، لا تتذكر اسمه الآن، ولكنها تتذكر جيدًا أنها منذ ذلك اليوم لم تترك القراءة أبدًا، ثم أصبح أبوها يعطيها المزيد من النقود لشراء المزيد والمزيد من الكتب، وكانت لا تشبع أبدًا.

أصبح للكتاب حضور غريب في نفسها، ولامتلاكه شهوة ربما لم تجد لها مثيلًا في امتلاك أيِّ شيء آخر حتى الآن، ربما لأنها لم تمتلك أيَّ شيء طوال حياتها، حتى حياتها نفسها لم تكن أبدًا ملكًا لها، ومنذ ذلك الحين وهي تقرأ، تقرأ في كل شيء، وعوضًا عن كل شيء ممنوع، وعن كل سؤال لا يجيبها أحد عليه.

تقرأ بعد كل مناقشة كانت تتم بلغة واحدة، ولكن لم يفهم طرفاها بعضهما البعض أبدًا، تقرأ بعد كل محاولة قمع من أبيها، وكل محاولة من أمها لتجعلها تفكر مثل الجميع كي لا تتعب كثيرًا.

تقرأ بعد كل مرض، وكل فشل وكل علاقة مؤلمة وصداقة عابرة كانت تظنها حقيقية، وهكذا كانت تلك تسليتها الوحيدة أن تقرأ، أو بالمعنى الأصح أن تهرب.

وعلمتها القراءة كيف تستقل بتفكيرها، وكيف تتصرف في ذلك المجتمع المتناقض كامرأة حرة، ولكنها في نفس الوقت أخبرتها بصوت هامس أنها ستواجه الكثير، وحذرتها خلسة ألا تستسلم أمام ما ستواجهه، ولكنها لم تقرأ جيدًا ما بين تلك السطور، أو ربما كانت هي التي لا تجيد قراءة واقعها، وعندما جاءت لحظة المواجهة الحقيقية كانت الصدمة صدمتها.

وجدت نفسها تواجه أمها التي قررت إخبارها بعد كل تلك السنوات أنه لا يحق لها فعل أيِّ شيء أرادته، أو تحقيق أيِّ حلم حلمت به إلا بعد أن تتزوج وتصبح مسئولة من رجل، كأنه يجب أن يكون صك ملكيتها في حوزة أيِّ شخص إلا نفسها، وأبوها الذي أعطاها الحرية لفعل كل شيء، ولكن بعد رحيله عن الدنيا، ثم وجدت الجميع تقريبًا يؤيدون أمها وأباها في أفكارهم؛ فأخذت تنظر حولها في عدم فهم، الرؤية أصبحت مشوشة جدًا، والأسئلة المبهمة عادت من جديد.

منذ متى كان مستقبلها مقرونًا برجل؟ بل منذ متى أصبح تحمل المسئولية مقصورًا على رجل؟ ولِمَ ربتها أمها أن تتعامل مع من حولها كألف رجل وألا تنتظر أن يسندها رجل؟ وهنا لم تستطع أن تهرب للقراءة كعادتها دومًا، فإجابة أسئلتها لم تعد موجودة بين صفحات الكتب، وحينما فكرت جيدًا فهمت كل شيء، واتضحت الرؤية ولكن على واقع تعيس.

لقد أعطتها أمها كتابًا ظنًا منها أن القراءة سوف تلهيها عن تلك الأسئلة التي لم تجبها عليها أبدًا، وأعطاها أبوها النقود لشراء المزيد من الكتب كي تظل أمام عينيه في المنزل دون الحاجة للتحليق خارج أسواره، ظنًا منه أنها هكذا ستكون بمأمن عن كل شر، ثم ها هي الحياة تعطيها درسًا عظيمًا مؤلمًا ألا تصدق أبدًا كل ما تقرأه، وأن القراءة تعيننا فقط على فهم الواقع، ولكن نحن من علينا أن نغيره بأنفسنا.

كانت قد وصلت إلى المنزل وهي تفكر أنها قد تعلمت الدرس جيدًا، وأنها بالفعل ستبدأ في تملك زمام أمورها وتغيير كل شيء بنفسها.

كان أبوها قد استيقظ، يجلس في انتظارها فقامت بتحضير طعام الإفطار، ثم جلسا يتناولان فطورهما وهما يتجاذبان أطراف الحديث في ودٍّ عجيب لم تعرف متى نشأ بينهما.

كان يحكي لها تلك الحكايات عن شبابه والتي حفظتها عن ظهر قلب، ولكنها الآن لها مذاق آخر، حينما قاطعتهما (أمل) بصوتها العالي المزعج، وهي تصطحب والدتها (أم هناء) اللتان دخلتا وجلستا بصحبتها هي وأبيها يتحدثان بعض الوقت في أحاديث عامة عن أخبار الحي، ومَنْ مات ومَنْ سافر وهكذا، حتى استأذن أبوها (أم هناء) كي يصلي صلاة الضحى وغادرهما في هدوء،

فأصبحت (ليلى) تجلس بمفردها مع (أم هناء)، بعد أن أصرت (أمل) أن تقوم بإعداد الشاي.

انتهزتها (ليلى) فرصة لتسأل (أم هناء) عما قالته عن جدها الليلة الماضية، إلا أنها وقبل أن تتفوه بأيِّ كلمة وجدت الأخيرة تربت بيدها على ذلك المكان الخالي بجوارها، وهي تقول:

ـ اجلسي بجواري يا حبيبة جدك.

ابتسمت (ليلى) من فطرة تلك السيدة الطيبة، وانتقلت للجلوس بجوارها، وهي تسألها في فضول:

ـ لماذا تناديني بذلك الاسم يا (أم هناء)؟

ـ لأنكِ حبيبة جدك بالفعل.

قالتها (أم هناء) وهي تربت في حنان على كتف (ليلى) التي سألتها باستغراب:

ـ ولكن جدي لا يعرفني ولم يرني أبدًا، لقد ولدت بعد أن مات هو بأكثر من خمسة عشر عامًا.

استندت (أم هناء) بظهرها إلى الخلف، وقالت وهي تتنهد:

ـ آآآآه يا حج عبد الرحمن، وآه على أيامك الجميلة، لقد كان جدك رجلاً صالحاً مكشوف عنه الحجاب، لا يدخل مكاناً إلا وتحل به البركة، ولا يقصده أحد في أمر مستعصٍ إلا ويأتي فرج الله.

كانت (ليلى) تنصت باهتمام، حينما أكملت (أم هناء) قائلة:

ـ كنا جميعًا نتبارك به، فقد كان دعاؤه مستجابًا، كأنه لا يوجد بينه وبين الله حجاب، هذا المنزل كان دائمًا مفتوحًا للجميع، لكلِّ قريب وغريب، وكان دائمًا ما يأتي شيوخ عظام يقرأون به القرآن، ولم يكن جدك يتوقف عن حلقات الذكر في شقة الدور الأرضي.

ابتسمت (ليلى)، وهي تقول:

ـ رحمة الله عليه.

ـ سأخبرك بشيء لم أخبر به أحدًا من قبل.

قالت (أم هناء) جملتها بتردد ما لبث أن تحوَّل إلى حزن، وقد بدأت في البكاء:

ـ لقد جاء لي جدك في المنام قبل وفاة (طلحة) نور عيني، جاء وقال لي لا تحزني (يا أم هناء)، فقط تلك الكلمة، قالها ثلاث مرات، وما إن رحل في المنام حتى وجدت نفسي عمياء لا أرى.

ربتت (ليلى) على كتفها في شفقة، فزادت حدة بكائها، وهي تكمل:

ـ وبعدها بثلاثة أيام اختفى (طلحة) نور عيني.

دمعت عينا (ليلى) من شدة تأثرها بحديث تلك السيدة المسكينة التي أكملت:

ـ ثم جاء بعد ثلاثين عامًا، جاءني ومعه (طلحة) شابًا جميلًا، فلقد رأيته بعيني والله يا ابنتي، لم أكن عمياء، عاد لي بصري ورأيته.

ثم أكملت بصوت خافت:

ـ جاء وأخبرني بقدومك أنتِ وأبيكِ، قال لي إن (ليلى) قادمة لتأخذ الأمانة.

عقدت (ليلى) حاجبيها في عدم فهم، وهي تردد الكلمة:

ـ أمانة؟ أيُّ أمانة؟

فتنهدت(أم هناء) وهي تمسح عينيها بطرف طرحتها السوداء، وتقول:

ـ الله أعلم ورسوله يا ابنتي، الله أعلم ورسوله.

ثم رحلت وهي تتلمس طريقها بكلتا يديها، وتردد تلك الكلمة دون سواها، بينما ظلت (ليلى) تنظر إليها وهي راحلة في استغراب شديد، وهي تتساءل بداخلها: أيُّ أمانة تلك التي ستأخذها من هنا؟ وأين توجد بالتحديد؟ ربما في غرفة أبيها تلك المغلقة دائمًا.

تعجبت بشدة مما سمعته من (أم هناء)، ولكنها صدقته بقوة فقد كانت (أم هناء) في رؤياها، ولكنها عادت وتساءلت: لماذا هي بالتحديد؟ فكل علاقتها بجدها صورة أبيض وأسود باهتة يعود وقت التقاطها إلى أواخرالخمسينات، كان أبوها يحتفظ بها مع بقية الصور في خزانته الخاصة، لكنها لم ترها منذ سنوات، بل إنها حتى لم تهتم أن تحتفظ بها، حتى إنها لم تسمع ذلك الحديث عن جدها من قبل إلا قليلًا، فقد كان كل حكايات أبيها عن كيف كان رجلاً ذا شخصية قوية يهابه الجميع.

والسؤال الأهم ما دخل جدها بكل ذلك؟ وإن كان له علاقة برؤياها لماذا أتى إلى (أم هناء) ولم يأتِ إليها؟ ولماذا لم تره مع كل من رأتهم؟

وقفت(ليلى) استعدادًا للذهاب إلى أبيها لكي تسأله عن جدها، وتأخذ منه مفتاح تلك الغرفة المغلقة حينما جاءتها (أمل) مسرعة وهي تتصنع البكاء، وتقول:

ـ يجب أن أذهب حالًا يا (لولو).

فسألتها (ليلى) في قلق:

ـ خيرًا، ماذا حدث؟

ـ لقد توفيت (أم إيهاب) جارتنا.

نظرت إليها (ليلى) بتساؤل، فأكملت (أمل):

ـ (أم إيهاب) التي تسكن في منطقة (الحكر) خلف المسجد، أنت تعرفيها فلقد كانت (نهلة) ابنتها زميلتك في المدرسة.

***

في دهب...

لماذا نصرُّ دائمًا أن الأمور بخير وهي ليست كذلك على الإطلاق؟ لماذا نصرُّ أننا أقوى دائمًا، فلا نلتفت إلى ما يؤلمنا، ونداوي جراحنا دون أن نتجاهلها قبل أن تسوء وتتوغل ويصبح علاجها أقسى مما كنا نتخيل؟ لماذا لا نصرخ حينما نحتاج إلى ذلك، ونرحل حينما نشعر بأننا لم نعد ننتمي إلى حيث نحيا؟

لماذا لا نبكي على مصابنا بحرقة، ونحزن على أرواحنا التي تنساب رويدًا رويدًا بالطريقة التي تليق بها؟ لماذا لا نخبر من آلمونا أنهم تركوا بنا أثرًا مخيفًا، وأنهم شوهونا بشكل مؤلم فلم نعد نرى الجمال في أنفسنا؟ لماذا نتركهم يحدثون تلك الندبات بأرواحنا دون مقاومة تُذكر منّا، ونؤثر الصمت دائمًا، ونغلق النوافذ والأبواب في جُبن حتى تمر العاصفة؟

بل لماذا لا نواجه العاصفة فتمرُّ من داخلنا؛ لتضرب أرواحنا بعنفها، فمهما كانت شدتها وقسوتها وتدميرها بالتأكيد سنخرج منها أقوى، ونبدأ بداية جديدة، بداية من اختيارنا، وها قد عادت إلى كلمة بداية مرة أخرى.

كانت رؤيتها مشوشة بعض الشيء بسبب تلك الدموع التي لم تتوقف عن الانسياب من عينيها منذ البارحة، تجلس أمام البحر مباشرة على تلك الأرجوحة تبكي بمنتهى الأريحية دون حساب لسؤال من حولها، وهي تفكر أنها جاءت إلى هنا لكي تحزن بهدوء، فربما ساعدها ذلك على تخطي تلك المرحلة المؤلمة، ولكن الأمور تزداد إيلامًا.

تلك الفتاة ليست هي، تُرى أين ذهبت روحها والتي بدأت في فقدان أثرها منذ سنوات، لكنها لا تعرف متى بدأ ذلك تحديدًا، كل ما تعرفه أن ما تبقى منها حتى تلك اللحظة هي امرأة تائهة، مشاعرها مرهقة، وقلبها يحتضر ماديًا ومعنويًا، فأصبح أقصى ما تستطيع فعله هو البكاء في صمت.

ظنت أنها ستجد هنا بعض من الراحة، ولكنها لم تعد تجد الراحة في شيء، ذهب شغفها بلا رجعة، وورقة الأمل الأخيرة التي تترنح بداخلها بالكاد تساعدها أن تستيقظ صبيحة كل يوم، ولكن بلا شغف، بلا أحلام، وبلا حياة. أصبحت إنسانة ضعيفة مذبذبة، خاوية؛ لذلك قررت اليوم أن تظل هنا في (دهب) بعيدًا عن كل شيء بقدر المستطاع، فربما تجد إجابة عن أسئلتها، ربما يرسل الله إليها النجدة من السماء، أو ربما تشفيها الوحدة الحقيقية، وتعيد ثقتها في نفسها أو تجعلها تكف عن المحاولة في أيِّ شيء وكل شيء.

ربما تصبح ـ كما أرادتها أمها دائمًاـ فتاة مطيعة لا تريد من الحياة سوى وظيفة مضمونة، وأسرة صغيرة تُفني فيهما نفسها وأيامها كما فعلت هي، أو ربما تكون تلك هي وسيلتها لانتظار الموت الأكبر بنفس راضية دون السعي إليه.

لم تعد متأكدة من شيء الآن سوى أن أيًّا من تلك التي ربما إن حدثت قادرة على اتخاذ قرار ما، والمُضي فيه مهما كانت النتائج، ولكن حتى يحدث ذلك ستظل هكذا تتأرجح بين كل الأحوال مستسلمة لكل شيء.

نظرت إلى السماء التي ابتلعت آخر ضوء للشمس وهي تميل بظهرها إلى الخلف، وتمد قدميها إلى الأمام؛ لتزيد من سرعة تحرك الأرجوحة، ويبدأ الهواء يخبط وجهها ويتسرب إلى داخلها؛ ليجعلها ذلك تزيد من سرعتها، وقد أغمضت عينيها؛ لتشعر أنها محلقة في السماء بعيدًا عن الأرض ولو فترة وجيزة. أعاد عقلها عليها صدام البارحة حينما رأت (يحيى) وسرحت بعيدًا في علاقتها به.

تقول علاقتها وليس علاقتهما؛ لأنها طالما رأت أنها علاقة من طرف واحد؛ فالحقيقة أنه لم يكن هناك بينهما شيء ملموس حقيقيّ تستطيع أن تطالبه به، أو يعطيها الحق للدفاع عنه.

ظهر هو في حياتها فجأة بعد عمليتها الجراحية الأولى واقترب منها بسرعة شديدة، والحقيقة أنها لم تُظهر أمامه أيَّ مقاومة تُذكر، فقد اعتقدت بسذاجتها حينها أنها بداية جديدة، وأن الله منحها حب حياتها.

كانت دائمًا ما ترى أن الحب عظيم، أعظم من أن ترهق مشاعرها في حكايات لن تستمر، وعلاقات عابرة تعرف أنها ستأخذ شغف البدايات فقط وتنتهي. ولسوء حظها أنه أدرك ذلك بفراسة رجل له باع طويل مع النساء، فأراد أن يكون هو أول من يفقد قلبها عذريته، إلا أنه لم يعرف أنه أفقدها كل شيء، وأفقد قلبها طعم الحياة من بعده تمامًا.

ابتعد فجأة مثلما اقترب فجأة، حتى أنه بخل عليها بمجرد الصداقة، ولكنها كانت بالسذاجة لتصدق أن حكايتهما لم تنتهِ بعد، حتى بعد أن فعل كل شيء يجعله قبيحًا باردًا قاسيًا، ولكنها لم تستطع أن ترى سوى الرجل الذي خطف قلبها منذ النظرة الأولى، والذي حرَّم على عينيها أن ترى رجلًا آخر غيره، ربما ظن أنها ستتجاوزالأمر سريعًا، ولكنها أبدًا لم تتجاوزه؛ فلقاء البارحة حطَّم كل ظنونها واعتقاداتها.

هبت دفعة هواء قوية جعلت أطرافها ترتعش ارتعاشة لذيذة، وكأنها تربت على قلبها؛ فترجَّلت من فوق الأرجوحة، وفتحت كلتا ذراعيها ليعبر الهواء من خلالها، ثم بدأت تدور حول نفسها ببطء، مستمتعة بذلك الهواء البارد.

أغمضت عينيها تمامًا، وقد نزعت بإحدى يديها حجابها؛ فتخلل الهواء شعرها القصير مما أشعرها بنشوى عجيبة، وهي تزيد من سرعة دورانها مأخوذة بتلك السيمفونية العذبة التي يعزفها صوت الهواء مع تلاحق الأمواج، مقطوعة الليل التي طالما أحبت سماعها، أخذت تدور بسرعة منتظمة كالدراويش أو راقصي المولويه، حتى شعرت أن قدميها لم تعودا تلامسا الأرض، وقد اتَّسع

صدرها كالسماء، وبينما هي كذلك تذكرت فجأة ذلك الحلم الذي راودها في الطائرة بكامل تفاصيله.

كانت في حلمها كالتائهة تسير عكس اتجاه ذلك الجمع الغفير من البشر الذين يدورون حول شيء غير موجود كالطائفين حول الكعبة. الجميع بلا ملامح ولا هيئة، فقط نور، إلا ذلك الشاب الهادئ تائه النظرات الذي يرتدي نظارة طبية، ويبدو عليه التعب يتأبط ذراع شيخ عجوز، وقفت أمامهما ولكن الرجل لم يتوقف، بل أبطأ قليلًا وهو يقول لها: "استمري، أنتِ في الاتجاه الصحيح"، ثم عاد لاستكمال طريقه.

اقتحم أفكارها فجأة حادث الدرَّاجة البخارية، ثم تذكرت ذلك الرجل الستيني ذو اللحية البيضاء، والذي ما زالت على يقين أنها رأته من قبل، وأنها تعرفه معرفة قوية، وفجأة توقفت عن الدوران حينما اكتشفت أنه هو نفس الشيخ الذي رأته في ذلك الحلم في الطائرة؛ ففتحت عينيها بغتة؛ لتنتفض إلى الخلف في فزع حينما التقت عيناها بذلك الواقف أمامها مباشرة، متطلعًا إليها في تركيز وهدوء.

كادت (ليلى) أن تقع من الصدمة، ولكن (يحيى) اتَّجه إليها مسرعًا، وفي خطوة واحدة كان يمسك يدها اليسرى بيمينه ويطوق خصرها بيساره، ليحميها من السقوط. جعلتها المفاجأة تنتفض وتلاحقت أنفاسها في سرعة آلمت قلبها، بينما كانت شفتاها ترتعشان وهي تنظر إليه غير مصدقة أنها بالفعل بين ذراعيه، نسيت كل شيء عن الحلم، والرجل ذو اللحية البيضاء؛ فحضوره قوي قاس كغيابه تمامًا.

لم يكن يفصلها عن صدره سوى سنتيمترات قليلة، أفقدتها القدرة على الحركة والنطق وهو ينظر إلى وجهها نظرة كادت أن توقف قلبها المريض، ثم ما لبث

أن عبس في حزن حينما لاحظ أهدابها المبللة، وبحركة لا إرادية أفلت يدها اليسرى ومسح بإبهامه آثار بكائها، وبيده الأخرى زاد من قربها إلى صدره، أما هي فقد كانت تستمتع بقربها منه لدرجة أخجلتها من نفسها.
كم كرهت نفسها في تلك اللحظة، أليس هو نفس الرجل الذي تجاهلها البارحة كأنه لا يعرفها؟ أليس هو نفس الرجل الذي كانت تلعن حبه منذ لحظات، وتتمنى لو لم تلتقِ به أبدًا؟ هل وصل بها الضعف إلى تلك المرحلة؟ أن يحتضنها بكل بساطة بلا أيِّ مقاومة منها بعد أن أدار وجهه عنها في الليلة الماضية دون أن يبدي اعتذاره، أو يحاول تبرير ما فعله.
أغمضت عينيها في ألم، ثم خبطت صدره بكلتا يديها بقوة وهي تبتعد عنه في حدة؛ فأفلتها بسهولة وتراجع إلى الخلف خطوتين وهو ينظر إليها في حذر وعدم فهم، بينما تنفست هي بعمق وهي تمسح عينيها، وتبحث عن حجابها بعشوائية وتوتر بسبب عينيه اللتين تتابعانها في صمت، استفزَّها بشدة فتحول ضعفها إلى غضب، وهي تتساءل ما الذي أتى به إلى هنا؟ لم تشعر بدهشة لمعرفته مكانها، ولكن ما أدهشها حقًا هو حضوره، فماذا يريد منها، ولماذا ذلك الصمت المستفز؟
كانت تتابعه بطرف عينيها حينما لاحظت أنه تحرك عدة خطوات والتقط شيئًا ما من الأرض لتكتشفت أنه حجابها، انتظرت أن يأتي إليها ليعطيها إياه؛ ليعتذر أو ليقول أيَّ شيء، ولكنه ظل ممسكًا به دون كلمة واحدة؛ فاستفزَّ ذلك كبريائها أكثر وأكثر، وجعلها تسير إليه بخطوات عصبية وحينما أصبحت أمامه، ودون كلمة واحدة سحبت حجابها من يده في حدة، ثم وبأسرع ما استطاعت تركته ورحلت، وهي تشعر بهوان وذل مريرين، وقد عادت لبكائها

حينما ظنت أنه سيوقفها أو يلحق بها، إلا أنه لم يفعل أيًّا من ذلك؛ فاشتدت حدة بكائها وهي تلعنه وتلعن تلك الدموع التي لا تريد أن تتوقف.
لم تكرهه يومًا مثلما كرهته الآن، فقد أبكاها بنفس الحرقة التي أبكتها بها صفعة أبيها يوم أن تاهت من أمها في السوق، مثلما أبكتها معلمة الموسيقى حينما سخرت من عزفها المتوتر أمام زميلاتها في المرحلة الإعدادية، ومثلما أبكتها صديقتها في الجامعة التي اكتشفت أنها تفعل كلَّ شيء لتشوه سمعتها أمام الجميع في حقد وغل لم تعرف سببهما حتى الآن، وهي لم تغفر أبدًا لكل من أبكاها بتلك الحرقة، وجعلها تشعر بذلك الهوان ولن تغفر له أبدًا.
ـ ليلى، ليلى.
توقفت حينما سمعت اسمها، واستدارت في ثقل واستغراب تحول إلى ذهول حينما رأت من بين دموعها تلك التي تناديها بذلك الودِّ، عرفتها على الفور رغم تغير شكلها بدرجة كبيرة، فقد خلعت الحجاب وأصبح شعرها ناعمًا قصيرًا، وبشرتها أفتح بدرجات، ربما بسبب هذا الكم الهائل من مساحيق التفتيح والتجميل التي كانت تضعها على وجهها، حتى ملابسها كانت في منتهى الأناقة، بغض النظر عن قصرها الشديد وعُريِّها الواضح، حتى نهداها أصبحا أكبر بكثير مما مضى، يظهر شقيهما بوضوح من فتحة صدر بلوزتها الشفَّافة.
من المستحيل أن تكون تلك مجرد صدفة، فالمرأة التي كانت تناديها هي (نهلة) صديقتها، شعرت (ليلى) أن الهواء قد انعدم من حولها وهي تحاول تدارك ما يحدث، ولكن ما يحدث لها كان أكبر من قدراتها، لم تشغلها رؤية (نهلة) بقدر ما شغلها التوقيت.
الآن؟؟ وبعد ذلك الكابوس مباشرة وفي آخر مكان من الممكن أن تقابلها فيه؟ هناك شيء ما يحدث وهي لا تستطيع استيعابه أو قراءته جيدًا..رؤية (يحيى)،

ذلك الحلم الغريب، وذلك الرجل العجوز ثم رؤية.. ستكون بمنتهى السذاجة لو أطلقت على كل ما حدث مجرد صدفة، فما حدث إشارة واضحة لشيء ما، ولكنها لا تستطيع إدراكها أو فك رموزها؛ فالقدر ليس عابثًا إلى تلك الدرجة، بل ليس عابثًا على الإطلاق.

كانت تتطلع في صمت إلى (نهلة) التي كانت تحتضنها، وتتحدث معها بصوت شعرت أنه يأتي من مكان سحيق، فقد ثقلت أنفاسها وأصبحت الرؤية أمامها ضبابية، أما عقلها فأخذ يرسل إشارات متضاربة لم تفهم منها شيئًا، ولكن كان كل مفادها أن ما يحدث تلك الأيام أكثر بكثير مما تستطع تحمله، وفجأة توقف كل شيء، فقد سقطت مغشيًا عليها.

***

ذهبت (ليلى) مع (أمل) و(أم هناء) وبعض من نساء الحي إلى منزل والدة (نهلة)، والتي اكتشفوا موتها مصادفة، فقد كانت تعيش وحيدة بعد أن رحل أبناؤها الثلاثة - نهلة وأخوتها- بعد رحيل الأب تاركين المدينة والمحافظة بأكملها، ووالدتهم التي أصرَّت ألا تترك منزلها وحياتها البسيطة، تلك الحياة التي تمرَّد عليها أبناؤها بعد وفاة والدهم.

جلست (ليلى) صامتة حزينة مع بعض النساء في صالة المنزل، بينما كان البقية في إحدى الغرف ينتهون من عملية الغُسل.

الجو شديد الحرارة لا يؤثر معه هواء، تلك المروحة المتهالكة التي تصدر أزيزًا متتابعًا بطريقة تستفز (ليلى) من ناحية، ومن ناحية أخرى كان عويل وصراخ بعض النساء الجالسات معها يصيبها بتوتر وضيق شديدين؛ فقررت ممارسة هوايتها المفضلة في مثل تلك المواقف حيث تقوم بالتركيز على ما حولها؛ فأخذت تتطلع إلى تفاصيل ذلك المنزل الذي لم تدخله من قبل، وقد عرفت

الآن لماذا كانت (نهلة) ترفض استقبال أيٍّ من أصدقائها فيه؛ فقد كان المنزل بسيطًا قديمًا ومتهالكًا، أثاثه متسخًا وحوائطه مقشرة متصدعة، وسقفه على وشك السقوط، تهويته رديئة ورائحته عطنة.

نظرت في هاتفها المحمول؛ لتجد الساعة قد جاوزت الخامسة مساءً ورسالة من (يحيى) يخبرها بأنه اشتاق لصوتها؛ فابتسمت خلسة ابتسامة باهتة، وقد قررت تأجيل الرد عليه الآن، ثم حاولت للمرة العشرين تقريبًا الاتصال بـ(نهلة) للاطمئنان عليها، ولكن الهاتف ما زال مغلقًا.

زفرت في ضيق وهي تعيد الهاتف إلى حقيبتها حينما انفتح باب الغرفة، وخرجت منها مُغسلة الموتى وهي تقول بصوت قوي؛ ليعلو على صوت نحيب النساء:

ـ لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله.

ردد الجميع وراءها الشهادتين في تأثر، ثم قالت المُغسلة:

ـ الأمانة جاهزة، اللهم أنر قبرها مثلما أنرت وجهها يا أرحم الراحمين.

ثم أخذت تدعو للمتوفاة، بينما انهمرت الدموع من عيون الجميع وهم يؤمِّنون على دعائها، وفي تلك اللحظة وصلت (نهلة) التي وقفت على باب المنزل تنظر حولها في صدمة وتبكي بحرقة، وهي تنظر إلى (ليلى) في عدم تصديق.

بدأت النساء في النحيب والعويل مرة أخرى وهن يقتربن من (نهلة) لتعزيتها ومواساتها، إلا أنها تركت الجميع وأخذت تجري نحو غرفة أمها، وما إن دخلتها حتى صرخت صرخة مدوية جعلت (ليلى) تنتفض من ذلك الألم الذي سرى في جميع أنحاء جسدها؛ فقررت الرحيل فورًا بعد أن أخبرت(أمل) أنها ستسبقهم إلى المسجد لأداء صلاة الجنازة.

في المسجد، جلست (ليلى) في هدوء وسكينة بمصلى السيدات قبيل أذان المغرب تنتظر حضور جثمان والدة (نهلة)، فطوال حياتها كانت تخاف بشدة من ذلك المشهد، نظرت حولها وهي تفكر أنها عاشت ما يقرب من نصف عمرها بجوار ذلك المسجد، ولم تخطه ولا مرة واحدة.

بدأت النساء يتوافدن إلى المسجد ومن بينهن (نهلة،) والتي ما إن رأت (ليلى) حتى اتَّجهت إليها في صمت، وجلست بجوارها تبكي بحرقة أوجعت الأخيرة؛ فاحتضنتها وأخذت تربت عليها في حنان.

أذَّن المغرب، وما هي إلا دقائق حتى استقام الجميع في صفوف متتالية، وبدأوا في صلاة المغرب أعقبتها صلاة الجنازة، ثم بدأ الجميع في الخروج من المسجد؛ لتشييع الجثمان إلى مثواه الأخير، حاولت (ليلى) أن تلحق بالجنازة، ولكن سرعة الجميع وبطء حركتها وبُعد المقابر جعلها تقرر أن تذهب إلى المنزل؛ لتضع طعام الغذاء لوالدها، ثم تعود مرة أخرى إلى منزل (نهلة) بعد أن يكونوا قد انتهوا من إجراءات الدفن.

جلست أمام باب المسجد تربط أربطة حذائها الرياضي حينما رأته يمر من أمامها مبطئًا في خطواته؛ فتسمَّرت يداها وظلت تتطلع إليه بعدم تصديق، كان هو ذلك المجذوب بنفس ملابسه ومسابحه الكثيرة وصوته العالي، وقد جلس بالقرب من باب مصلى الرجال يطلب نفحات من السائرين والوافدين إلى المسجد.

اقتربت منه (ليلى) وجلست إلى جواره في حذر فالتفت إليها فجأة؛ ليتصلب جسدها وينبض قلبها بعنف في صدرها من خوف، لم تعرف سببه، إلا أنها ابتلعت لعابها وقالت بينما كانت تخرج نقود من حقيبتها وتعطيها له:

ـ كيف حالك؟

لم يجبها كما أنه لم يأخذ منها النقود، كل ما فعله أنه وقف فجأة، وقال بصوته العالي وهو يدخل المسجد:

ـ مدد يا حبايب مدد، أنا جيت ولبيت النداء، أحب آل البيت وعايش على حبهم، طوَّاف على بيوتهم، طمعان في حبهم.

ثم اختفى بداخل المسجد، بينما ظلت هي مكانها تحاول أن تتحكم في جسدها الذي كان ينتفض بعنف.

***

في القاهرة...

كان يومًا من أيام شهر يوليو من تلك الأيام شديدة السخونة حينما قررت أم (ليلى) اصطحابها لزيارة مسجد (سيدنا الحسين)، وبالرغم من شدة استغرابها لذلك القرار إلا أنها لم تعترض، فهي منذ خرجت من المستشفى لم تعد تعترض على شيء، وقد قررت أن تعطي للقدر فرصة أخرى لترى إلى أين سيذهب بها؛ لذلك وافقت أمها دون أيِّ نقاش أو جدال، حتى أنها ساعدتها في تعبئة بعض الطعام؛ لتوزيعه على الفقراء والمحتاجين هناك أمام المسجد.

ـ فلتبقي بجواري حتى لا تصطدمي بأحد؛ فالزحام شديد.

قالتها أمها في حنان وهي تسندها بإحدى يديها في طريقهما لدخول مقام (سيدنا الحسين).

استندت (ليلى) بإحدى يديها على عصاها، بينما احتضنت أمها يدها الأخرى؛ فقد كان الزحام بالفعل شديدًا وتدافع النساء أشد، وما إن دخلتا المقام ونظرت (ليلى) إليه حتى فغرت فاها مما رأته وهي تنظر إلى ذلك المقام الذي يقف في منتصف المكان في شموخ وجلال وعظمة، بلونه الفضي اللامع، محاطاً بسور من نفس اللون؛ فشعرت برهبة تجتاح روحها، وارتجافة تجتاح أطرافها لدرجة

ظلت معها عيناها معلقة بالمقام في صمت مهيب لا تدري ماذا تقول، هو لا يشبه بأيِّ حال من الأحوال ما رأته في رؤياها، ولكن ذلك السلام والهدوء اللذين حلَّا على قلبها هما ذاتهما ما شعرت بهما حينما نظر إليها ذلك الشيخ في رؤياها.

نظرت بجوارها لتجد أمها تتمتم بكلمات لم تفهمها وتبكي، وهي تمسح بكفها على ذلك السور الذي يطوق المقام، ثم تعود وتمسح بنفس الكف على يدها وقدميها المصابتين، ومنتصف صدرها في مكان جُرحها، ثم تقول لها:

ـ اقرأي الفاتحة لمولانا وأدعيه أن يصلح بينك وبين زوجك.

ـ طليقي.

قالتها (ليلى) بغضب، ثم بدأت في الابتعاد عن أمها مستندة إلى السور، وهي تفكر أن هذا كل ما يشغل فكر أمها؛ لذلك جاءت بها إلى هنا ليس لتساعدها لتفهم ما رأته، ولكن ظنًا منها أن تلك الزيارة ستجعلها تتراجع عن قرارها وتعود إلى (شريف)، لم تعرف أمها أن (شريف) لن يعود إليها أبدًا، وأنها أيضًا لم ولن تعد كما كانت مرة أخرى.

ظلت تخطو بحذر وسط ذلك التزاحم، حتى وصلت إلى إحدى أركان السور الفضي؛ فوقفت تتطلع حولها لحظات كانت كافية أن تذهب غضبها من كلمات أمها، وتعيد إليها ذلك الإحساس بالهدوء والسكينة مرة أخرى، ولكنها انتفضت فجأة حينما اخترق أذنها صوت عالٍ، يقول:

ـ الفاتحة للكريمة، العظيمة، المُشيرة، المحكمة، أم هاشم، أم العواجز، رئيسة الديوان، ستنا السيدة زينب.

وجدت نفسها تقرأ الفاتحة لأول مرة منذ دخولها إلى المقام وهي تلتفت برأسها إلى يسارها؛ لتجد صاحب الصوت رجل من الدَّراويش، من أولئك المجذوبين

المشردين الذين يلبسون ملابس مهلهلة ويضعون حول رقابهم مسابح خشبية، إلا أن ذلك المجذوب لم يكن متسخًا على الإطلاق، كان أصلع الرأس، ذو ملامح مميزة وعينان مسحوبتان من الجانبين، يرتدي جلبابًا أسود اللون به خطان طوليان لونهما أخضر. وعلى كتفه وشاح أخضر، وحول رقبته الكثير من المسابح متعددة الألوان، نظر مباشرة إلى عينيها، ثم قال بصوت جهوري:

ـ الفاتحة لمولانا بابا سيدنا الحسين، أبو سيدي علي زين العابدين.

ولكن تلك المرة لم تنتفض (ليلى) من صوته، بل وبطريقة آلية قرأت الفاتحة وهي تتابعه بعينيها حتى اختفى من المقام تمامًا، تناهى إلى مسامعها أصوات نهنهة المرأة التي تقف بجوارها، فنظرت إليها لتجدها تتحدث إلى (سيدنا الحسين)، تشكي إليه وتخبره بتفاصيل مشكلتها، كأنه يقف أمامها مباشرة يستمع إليها، والعجيب أنها كانت تفعل ذلك دون خجل أو حساب لمن حولها.

نظرت إليها (ليلى) باستغراب، ثم بدأت تنقل عينيها بين جميع زائري المقام رجالًا ونساءً، من يبكي ومن تدعو ومن تتحدث إلى المقام وهي تشير إلى طفلها الذي يقف بجوارها، ومن تلقي عليه السلام وتقذف إليه بقبلة في الهواء، تنظر إليهم جميعًا في ذهول خفي، وهي تتساءل ماذا ينتظرون منه أن يفعل؟ ومن أين أتوا بكل تلك الثقة وذلك الحب؟

عادت بعينيها إلى المقام، ثم صعدت بهما إلى السقف؛ لتقع عيناها على إحدى أركانه، و تقرأ المكتوب فيه بوضوح:

(ركنُ هذَا المَقامِ جنَّةُ عَدِنٍ.. مَن أتَاه يَفُوزُ بالمَأمُول).

وكأنها كانت رسالة موجهة مباشرة، تعلقت عيناها بتلك الجملة، وظلت تنظر إليها طويلًا، وقد فاضت عيناها بالدموع بلا سبب، أخذت تعيد وتزيد في قراءة تلك الكلمات، وكلما قرأتها كلما شعرت براحة شديدة وبصفاء نفسي، وكأن كل

أنوار المقام دخلت صدرها، وكأن كل جماله وجلاله قد استقرا في روحها؛ فأغمضت عينيها وهي على يقين لا تعرف مصدره أن من هنا بدأت الرحلة.
وفي الخارج جلست على واحدة من تلك المقاعد الرخامية الموجودة في ساحة المسجد، تساعد والدتها في توزيع الوجبات في سعادة حينما اقترب منها ذلك المجذوب الذي رأته في المقام، كان ينظر إليها وهو يبتسم، ثم خلع من رقبته مِسبحة خضراء اللون، ومدَّ يده بها إليها، وهو يقول:
ـ نفحة.
نظرت إليه (ليلى) لا تفهم ما يقوله، حينما سمعت أمها تقول لها:
ـ يريد شيئاً لله، اعطيه وجبة طعام.
أمسكت (ليلى) بإحدى الوجبات، ومدت يدها إليه وهي تبتسم؛ فغضبت ملامحه وهو يهزُّ رأسه يمينًا ويسارًا علامة الرفض، ثم عاد مرة أخرى، ومدَّ يده إليها بالمِسبحة وهو يقول وقد عادت ابتسامته:
ـ نفحة.
نظرت إليه نظرة أنها لا تفهمه، حينما جاءها صوت سيدة عجوز ترتدي جلبابًا أسود اللون، تجلس بالقرب منهما تقول لها:
ـ نفحة يا ابنتي، يريد نقود.
ففهمت (ليلى) وشكرتها بابتسامة هادئة، ثم وضعت يدها في حقيبتها، وأخرجت خمسة جنيهات، ولكنها كانت تريد أن تعطيه المزيد فأخرجت عشرين جنيهًا، وأعطتها له إلا أنه سحب من يدها الخمسة جنيهات في سعادة، فقالت له باسمة وهي تمد يدها بالعشرين جنيهًا:
ـ خذ هذه، إنها أكثر مما معك.
ولكن المجذوب رفض بشدة وهو يعطيها المِسبحة، ويقول:

ـ نفحة.

ابتسمت له (ليلى) بشفقة وأخذت منه المِسبحة؛ فقال لها وهو ينظر إلى السماء:

ـ بعد خمسة أيام.

انتبهت (ليلى) لما قاله فسألته في فضول:

ـ ما الذي سيحدث بعد خمسة أيام؟

ـ المولد يبدأ، والباب يُفتح.

فسألته في عدم فهم:

ـ أيُّ مولد؟ مولد سيدنا الحسين؟

فقال بصوته العالي:

ـ مدد يا مولانا، يا بابا يا سيدنا الحسين.

ثم هزَّ رأسه نفيًا، وقال لها بصوت عالٍ وهو يتركها راحلًا:

ـ المولد يبدأ، والباب يفتح.

نظرت إليه في حيرة وحاولت أن تتبعه، ولكنها ما إن حاولت الوقوف حتى شعرت بألم حاد في قدمها اليسرى أجلسها مرة أخرى، فرفعت عيناها لتنظر إلى المجذوب الذي كان يبتعد عنها، وهو يقول بصوت عالٍ:

أنا الدرويش.
أنا السابح بمسبحتي.
ومبخرتي وتوبي الخيش.
أنا التايب عن المية الحرام والعيش.
أنا الدَّرويش أبو الدَّراويش.
جناحات قلبي من غير ريش.

أنا المجنون في قلبي الذكر.
ومحتكر المحبة البكر.
وقلبي منشد الأذكار.
أنا العابد، أنا الزَّاهد.
أنا اللي يحب ميلومنيش.
أنا الدَّرويش.

كانت (ليلى) مذهولة من تلك الكلمات التي يرددها ذلك المجذوب، والتي كانت من قصيدة (أنا الدَّرويش) للشاعر (عبد الرحمن الأبنودي)، وهي تتساءل كيف يعرف تلك القصيدة؟ ومن أين أتى بها؟

اختفى صوت المجذوب فجأة فنظرت (ليلى) في الاتجاه الذي سار فيه ولكنها لم تجده، بحثت بعينيها في المكان ونظرت في كل اتجاه، ولكن لم يكن له أيُّ أثر، فقد اختفى تمامًا.

***

اختفى المجذوب داخل مسجد (سيدى طلحة)، بينما ما يزال صوته العالي يصل بوضوح إلى مسامع (ليلى) التي ظلت في مكانها تحاول استجماع شتات نفسها، وهي تفكر كم هي احتمالات رؤيته مرة أخرى في هذا المكان بالتحديد؟

تذكرت كلماته التي أخبرها بها حينما رأته لأول مرة في ساحة مسجد (سيدنا الحسين) "المولد يبدأ، والباب يفتح "، فتطلعت حولها لتلاحظ لأول مرة مظاهر المولد التي بدأت في الظهورعلى استحياء متمثلة في تلك الخيم المنصوبة، والألعاب التي بدأت تنتشر حولها، وبائعي الحلاوة والحمص الذين تراصَّ

بعضٌ منهم على أطراف المكان، وبحسبة بسيطة اكتشفت أن اليوم يكون قد مرَّ خمسة أيام على زيارتها لسيدنا الحسين ومقابلتها ذلك المجذوب.

نظرت إلى السماء نظرة طويلة، ثم استجمعت قواها وشجاعتها، واتجهت إلى داخل المسجد من الباب المخصص للرجال، وهي تبحث عن ذلك المجذوب بعينيها حتى وجدته أقصى اليسار؛ فأخذت تنادي عليه، ولكن دون جدوى، فقد كان يتحدث بصوته العالي دون أن يلتفت إليها؛ لذلك لحقت به لتجده يقترب من باب خشبي كبيرعلى يسارها في اتجاه القبلة، وهو يقول:

ـ المولد بدأ، والباب فتح.

ثم عبر ذلك الباب الخشبي واختفى خلفه، نظرت (ليلى) حولها بإحراج زال تمامًا حينما اكتشفت أن لا أحد ينظر إليها، أو يهتم بها أو بالمجذوب؛ فكلٌّ في ملكوته الخاص؛ لذلك تجرأت وتبعته لترى ما يوجد خلف ذلك الباب الذي كان مواربًا؛ فطرقت عليه عدة طرقات، ثم دخلت لتجد نفسها في حجرة واسعة مربعة الشكل، وفي منتصفها بالضبط مقام خشبي كبير بنيِّ اللون بسيط، ولكنه يوحي بالهيبة والعظمة. وكأنها نسيت تمامًا أمرالمجذوب، أخذت (ليلى) تتطلع إلى المقام وسقفه، وهي تطوف حوله تنظر إلى تفاصيله بانبهار، وإلى تلك القبة العالية ذات الارتفاع الشاهق التي تعلو المقام مباشرة، بعظمتها وألوانها الجميلة ورسوماتها المُتقنة.

ظلت (ليلى) تسير ببطء حول المقام الذي ظنته في البداية خاليًا إلا منها، وهي تنظرمن خلال الفتحات الصغيرة الموجودة في جدرانه الخشبية؛ لترى ضريحين مغطيين باللون الأخضر، يخرج منهما رائحة مسك زكية؛ فنسيت تمامًا أمر(نهلة) وأبيها، والمجذوب الذي اختفى فجأة كأنه تبخَّر، حينما تناهى إلى مسامعها صوت رخيم هادئ، جعلها تكمل دورانها لتصل إليه.

كان شابًا نحيلًا طويلًا لم يتجاوز الثلاثين من عمره، أبيض الوجه كستنائي الشعر يرتدي نظارة طبية، يجلس على الأرض في أحد الأركان متربعًا يمسك بيده مِسبحة، وقد التفَّ حوله بعض من الرجال يتحدث معهم كأنهم في حلقة درس ديني.

ألقت السلام على الموجودين بصوت خافت؛ فنظر إليها ذلك الرجل في صمت وحيَّاها بإيماءة من رأسه، فردت له التحية بابتسامة هادئة، ثم جلست بالقرب منهم، بينما عاد هو لحديثه بنفس الصوت الرخيم وبهدوء وطلاقة شديدين؛ فأنصتت له (ليلى) حيث كان يقول:

ـ ربنا يقول في كتابه العزيز، بسم الله الرحمن الرحيم: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)** صدق الله العظيم {المائدة:54}، قال الله: يحبهم ويحبونه ولم يقل العكس؛ لأن الله هو مصدر الحب، والحب هو أساس العبادة ومصدر نور القلب، أن ترى الله في كل شيء؛ فكل شيء هو نفخة من روحه، وحينما يحب الله عبدًا من عباده، ويريد أن يدخله في معيَّته يعطيه الإشارة ليدله على الطريق.

قال تلك الجملة وهو ينظر إلى (ليلى) التي انتصبت في جلستها، وقد اشتد تركيزها في حديثه فأكمل، قائلًا:

ـ قد تكون الإشارة في الظاهرعن طريق رجل صالح أو موقف يتعرض له الإنسان، فيضع الله في قلب ذلك الشخص الالتفات إليه؛ وقد تكون في الباطن عن طريق رؤية منام، أو رؤية أحد الأولياء الصالحين، أو سيدنا النبي بنفسه.

ردد الجميع من حوله:

ـ اللهم صلِ وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ليكمل قائلًا:

ـ ومن هنا يبدأ الالتفات، ثم البحث والاقتراب، وكلما زاد القرب زاد الحب، وكلما زاد الحب زادت أنوار القلب، فلا يرى العبد سوى الله وحبيبه عليه أفضل الصلاة والسلام.
ـ عليه أفضل الصلاة والسلام.
هنا سأله أحد الجالسين حوله:
ـ وكيف يكون الحب يا شيخ (جبريل)؟
ابتسم الشيخ (جبريل)، قائلًا:
ـ في البداية أنا لستُ بشيخ، أنا عبد فقير، مريد محب لله ورسوله وآل بيته الكرام، أخبركم بما فتح به الله ورسوله عليّ. نعود لإجابة سؤالك كيف يكون الحب، بكل بساطة أن تفعل ما يحبه المحبوب، وما فعلك إلا دليل على حُبك، صلاتك وصيامك وقيامك الليل وذِكرك هكذا..
فسأله رجل آخر:
ـ ولكننا جميعًا نفعل كل ذلك يا شيخ.
ـ هناك من يتصل بروح الخوف، وهناك من يتصل بروح المحبة؛ فالخوف من الله يصل بالعبد إلى الجنة، ولكن المحبة تصل به إلى الله، وكلما أحب العبد كلما تعلق بمحبوبه، وحينما يتملك الحب من القلب تنصرف الروح عن فكرة الجنة والنار، وتطوف كليًّا حول المحبوب.
ـ وكيف نحب الله؟
سأل ذلك الشاب الذي كان يبدو عليه الحزن والهم الشديدين، سأله بضعف وخشوع جعلا (ليلى) تشعر بالشفقة على حاله؛ فابتسم الشيخ (جبريل)، ونظر إلى ذلك الشاب في عينيه مباشرة، ثم قال:

ـ حسنًا، ذات يوم جاء أحد المريدين الباحثين عن الله لشيخه وتوسل إليه، قائلًا: "أرجوك يا سيدي،علمني كيف أكون صادقًا في محبة الله"، فتبسَّم الشيخ قائلًا: "حُبه لك قد سبق حُبك له، فلا ينفعه حبك ولا يضره، فارضى بما قدَّره الله عليك، وفوِّض أمرك إليه"؛ فعاد المريد يُلحُّ، ويقول: "أستحلفك بالله أن تعلمني كيف أحب الله"، وأخذ يرجوه ويتوسل إليه، فقال له الشيخ: "حسنًا، تخرج من عندي الآن، وأول ثلاثة أشخاص تلتقي بهم تخبرهم أنك تحب الله، ولا تعترض على ما يفعلونه بك"؛ فقال:"أفعل إن شاء الله"، وخرج الرجل يمشي في الأزقَّة؛ فرأى حطَّابًا قويًّا مفتول العضلات؛ فوقف أمامه وقال له: "إني أُحبُّ الله"؛ فصفعه الحطَّاب صفعة على وجهه سقط منها أرضًا، ثم أخذه من يده وقال له: "خذ حزمة الحطب هذه وأوصلها إلى بيتي"، ففعل الرجل خائفًا ومرتعدًا، ولما وصلا إلى البيت قبَّل الحطَّاب رأسه ويده، وقال: "سامحني يا سيدي"؛ فتعجب المُريد، وفرَّ راكضًا إلى أن رأى شيخًا عجوزًا، فوقف أمامه، وقال: "إنِّي أحبُ الله" فعانقه العجوز وهو يبكي ويقبل رأسه، ثم أخذه إلى منزله، وقدَّم إليه الطعام والشراب، فأكل المريد بنهم شديد، ثم افترش على الأرض ونام من تعبه، ولكن بعد قليل أيقظه العجوز صارخًا في وجهه وطرده من البيت؛ فتعجب المريد مما يحدث معه وعاد للسير، حتى قابل شرطي فوقف أمامه بثيابه المتَّسخة ووجهه الشاحب، وقال له: "إني أحبُ الله"، فعطف عليه الشرطي وتحدث معه بلطف لين، وأخذه من يده حتى أوصله لمستشفى المجانين، وتركه هناك فظل المريد يصرخ، ويقول: "أنا لستُ مجنونًا، أنا فقط أحب الله تعالى"، وظل يبكي حتى جاءه شيخه وأخرجه، فحكى لشيخه أحداث تلك الليلة حتى تبسَّم منه الشيخ، وقال له: "تلك ليلة واحدة في حب الله، فأما الحطَّاب يا ولدي فظنك كاذبًا مُدعيا، ولما رأى تسليمك لله تعالى علم

صدقك واعتذر منك، وأما العجوز فقد ظنك صادقًا فأكرمك، فلما رآك أكلت ونمت، ولم تقم لصلاة ظنك كاذبًا ومدعيًا فطردك، وأما الشرطي لما رأى هيئتك وقذارتك ظنك مجنونًا"، ووجَّه حديثه إلى الشاب، قائلًا:

ـ هكذا من يحب الله تعالى، (إما صادق متهم) وإما (متهم صادق) وأهون أمره أن يقولون عنه (مجنون تائه)، هل فهمت الآن معنى أن تحب الله؟ هو حمل عظيم لا تقدر عليه الجبال الرَّاسيات.

ثم أكمل الشيخ(جبريل) حديثه، وهو ينظر إلى الشاب المسكين:

ـ لذلك يحبنا الله أولا ليهيىء قلوبنا لذلك الحب، هي أشياء لا تُشترى.

كانت (ليلى) مأخوذة كليًّا بذلك الحديث، ينتفض قلبها من قوة صدقه، وكأنها تتعرف إلى الله من جديد، معانٍ كثيرة نبتت بداخلها، وأحاسيس متناقضة تضاربت بقلبها جعلتها تشعر بحزن عجيب لا تعرف سببه؛ فترقرقت الدموع في عينيها وهي تنظر إلى ذلك الشيخ الذي كانت كلماته مثل نار سيدنا إبراهيم تنزل بردًا وسلامًا على روحها، على الرغم من أنها أشعلت بداخلها الكثير من الأسئلة الجديدة.

ظل الحديث دائرًا، والشيخ (جبريل) كما يدعوه من حوله يتحدث بحب وعيناه تفيض خشوعًا عن الله ورسوله وآل بيته الكرام وأوليائه الصالحين، مقاماتهم وكراماتهم وتاريخهم العَطِر، و(ليلى) تستمع بجسد ساكن وروح هائمة، حتى أذَّن المؤذن بصلاة العشاء، فانفضَّ المجلس وذهب الجميع لأداء الصلاة.

ترك الجميع المقام، وكان الشيخ (جبريل) آخر الراحلين حينما توقف على باب المقام، ثم التفت إلى (ليلى) قائلًا بابتسامة بشوشة:

ـ غدًا إن شاء الله نكمل حديثنا، وأُجيبك على كل الأسئلة التي تحيّرك.

جفلت (ليلى) من كلماته، ونظرت إليه في عدم فهم، ولكنها سألته وهي تستعد للوقوف:

ـ متى غدًا؟

عاد إلى حيث تجلس، وأجابها وهو يساعدها على الوقوف:

ـ حينما يناسبك الوقت ستجديني هنا في انتظارك.

استندت إلى عصاها، وهي تنظر له في امتنان ممزوج باستغراب، فاستأذنها في أدب ليلحق بصلاة العشاء ورحل في هدوء، بينما وقفت هي تتطلع إلى المقام، وبداخلها فيضان من الحيرة والأسئلة بعد أن قابلت ذلك الرجل. شعرت بضيق وهي تنظر إلى المقام الواقف بوقار وهيبة أمامها، إلا أنها وجدت نفسها تبتسم بلا سبب، وقد شعرت ببعض الرضا حينما تملكها ذلك الشعور بأنها ربما تكون قد وجدت الطريق، ووقفت على بدايته.

***

"عندما يتراكم عليك كل شيء، وتصل إلى نقطة لا تتحمل بعدها أيّ شيء، احذر أن تستسلم؛ ففي هذه النقطة سيتم تغيير قدرك إلى الأبد".

مولانا جلال الدين الرومي..

الليلة الثالثة

وقفت (ليلى) أمام قبر جدها صامتة تنظر إلى ذلك الشاهد المكتوب عليه اسمه وتاريخ وفاته، لطالما كانت وهي صغيرة تخاف من المقابر، أو حتى مجرد المرور بجوارها، ولكنها كانت الوحيدة في صغرها التي تأتي إلى هنا بصحبة والدها لزيارة جدها وجدتها، حيث كان يصطحبها والدها بعد صلاة العيد مباشرة، ويشتري لها لعبة جديدة تلهو بها بجواره، بينما يقف هو ليقرأ الفاتحة لأبويه، ولكنها أبدًا لم تحب ذلك.

دائمًا ما كانت تشعر بخوف شديد من فكرة أن هناك أناسًا بداخل تلك المقابر ينامون وحيدين في ظلام دامس، وكان يزيد من خوفها أولئك النساء المتَّشحات بالسَّواد اللاتي كن يملأن المكان صبيحة كل عيد؛ لذلك بعد أن كبرت قليلًا، ولم يعد أمر الألعاب يهمها كثيرًا، امتنعت عن الذهاب مع والدها.

كان القبر مهملًا ونباتاته ذابلة، تنمو حوله حشائش خضراء بطريقة عشوائية؛ فقررت أنها في وقت لاحق ستأتي لتعتني بالمكان، وتضع به الكثيرمن نباتات الصَّبار وتزيل تلك الحشائش، ثم عادت بعينيها إلى شاهد القبر وهي تتذكر كلمات (أم هناء)، وتتساءل في حير: ترى ما هي الأمانة التي جاءت لتأخذها؟ ابتسمت (ليلى) إلى قبر جدها، ثم قرأت له هو وجدتها الفاتحة وودَّعته في هدوء؛ لتعود إلى (نهلة) التي كانت تجلس أمام قبر والدتها منذ الصباح الباكر تبكي بحرقة صامتة، فجلست بجوارها، تربت على كتفها بين الحين والآخر في شفقة، وهي تفكر في تعجب كيف تبدل حال تلك الفتاة بين ليلة وضحاها؛ فتلك التي

تجلس بجانبها تبكي في قهر وندم لا تشبه بأيِّ شكل من الأشكال (نهلة) التي رأتها في (دهب) بملابسها العارية وجموحها العالي.

حاولت (ليلى) أن تواسيها، ولكنها لم تجد كلمات يمكنها أن تهدئ من وجعها فظلت صامتة، وقد وجدت أن البكاء الآن ربما هو أفضل شيء لها؛ فتركتها تبكي بينما سرحت هي في أفكارها، وفي ذلك المكان الذي تجلسان فيه حينما سألتها (نهلة) من بين دموعها:

ـ هل تظنين أنها ستسامحني؟

ربتت (ليلى) على كتف (نهلة)، وهي تجيبها بحنان:

ـ بالتأكيد يا (نهلة)، لقد كانت والدتك سيدة طيبة، بالتأكيد ستسامحك.

ـ والله يا (ليلى) لقد كنت أُلحُّ عليها كثيرًا أن تأتي للعيش معي، ولكنها كانت ترفض دائمًا، وكنت أزورها كثيرًا.

ثم أكملت وقد انفجرت في البكاء بصوت عالٍ:

ـ أكثر ما يؤلمني إنها ماتت وحيدة.

ثم أكملت بصوت مختنق:

ـ ماتت وهي تظن أنني ابنة عاقة وفتاة سيئة، (ليلى) هل أنا بذلك السُّوء؟ أعلم أنني طوال حياتي كنت ناقمة على كل شيء هنا، أعلم أنني فعلت الكثير من الأشياء الخاطئة، وأنني أحيا بطريقة خاطئة، وأن الجميع يراني فتاة منحرفة و...

اسكتتها (ليلى) بإشارة من يدها، وهي تقول:

ـ هوِّني على نفسك يا (نهلة)، لا أحد له الحق في محاسبتك إلا الله، لا أحد يرى قلبك سوى الله، والله غفور رحيم.

نظرت إليها (نهلة) في حزن، وقد هدأت حدَّة بكائها قليلًا، بينما تذكرت (ليلى) ما فعلته في دهب، وما حدث بينها وبين (يحيى).. تذكرت كل الأشياء الخاطئة

التي فعلتها في حياتها بدافع التَّمرد والحرية أحيانًا، وبدافع اليأس والتيه الذين كانت تغرق فيهما أحيانًا أخرى، وبدون دافع في أكثر الأحيان، فأكملت بندم كأنها تحدِّث نفسها:

ـ كلنا نخطئ ونسقط، كلنا نحيد عن الطريق الصحيح، ولكن الله موجود دائمًا، موجود في كل الطرق، وأنتِ لستِ بذلك السوء الذي تظنيه، ربما أخطأتِ كثيرًا أو قليلًا لا يهم، ولكن المهم أن لديك فرصة لتصحيح أيِّ خطأ، ربما ما حدث هو إشارة من الله لكِ أن تعيدي حساباتك من جديد.

ابتسمت لها (نهلة) من بين دموعها في حب وشكر، ثم قالت لها:

ـ كنت أغار منكِ كثيرًا، من عائلتك ومستواكم المادي، من طيبتك الزائدة وأدبك الذي كان الجميع يتحدث عنه، رغم أنكِ الوحيدة تقريبًا التي كانت ترافقني بلا خجل، بل وتدافعين عني حتى تمنيت كثيرًا أن أكون مكانك.

ابتسمت لها (ليلى)، فأكملت (نهلة) قائلة:

ـ بقدر ما ذُهلت حينما رأيتك في منزلنا، بقدر ما حمدت الله على وجودك، ما الذي أتى بكِ إلى هنا يا (ليلى) مرة أخرى؟ ولماذا الآن بالتحديد؟

ـ صدقيني لا أعرف، إنها حكاية طويلة ربما أحكيها لكِ يومًا، وربما حينها سأكون فهمت أشياء كثيرة، كل ما أعرفه أننا كلنا نخطئ، وكلنا نسقط ونحيد عن الطريق الصحيح، ولكن هناك دائمًا فرصة جديدة وبداية جديدة.

ـ بالتأكيد هي حكاية طويلة، فما رأيتك تفعلينه في (دهب) جعلني متأكدة أنكِ مكسورة، وأن هناك شيئًا كبيرًا حدث لكِ.

لم تجبها (ليلى)، بل أشاحت بنظرها بعيدًا، وقد شعرت بمرارة في حلقها حينما جعلتها كلمات (نهلة) تستعيد ذكرى تلك الأحداث مرة أخرى.

***

في دهب..

في منزلهم القديم مرة أخرى وقفت (ليلى) تنظر حولها في عدم فهم كيف بين غمضة عين وانتباهتها تصبح في مكان آخر بعيد، أبعد ما يكون عن المكان الذي تتواجد فيه، ولماذا دائمًا تعود إلى منزلهم القديم؟

كأنها عادت أكثر من ثلاثين عامًا إلى الوراء؛ فالمنزل كما كان في طفولتها تمامًا بنفس ألوانه وأثاثه إلا غرفتها، كانت شبه مهدمة معظم جدرانها متآكلة ونافذتها مكسورة.

هناك أشياء عادت مرة أخرى لمكانها بالرغم من أنهم تخلصوا منها منذ سنوات، كتلك الأرجوحة التي صنعها لهم أبوها بطريقة مستحدثة تمكنهم من اللعب بها أيِّ وقت، وحين الانتهاء وبمنتهى السهولة يتم طيها وتعليقها على إحدى جوانب ذلك الممر الكبير الذي كان يقسم المنزل لنصفين.

أنزلت (ليلى) الأرجوحة، ثم وبسعادة كبيرة جلست عليها، وبدأت تتحرك بها حركات هادئة ممتعة تعيد إلى قلبها أجمل أوقات طفولتها، حينما تناهى إلى مسامعها أصوات الاحتفال بمولد (سيدي طلحة)، أصوات الطبول والدفوف ممزوجة مع نغمات الناي، يتداخل معها قصائد المدح والمواويل المشهور بها مثل تلك المناسبات؛ فأغمضت عينيها، وأخذت تتمايل مع تلك الأصوات، ولكنها حين فتحت عينيها ثانية هالها ما رأت، النيران تأكل كل شيء، وتقترب منها بسرعة شديدة، فأخذت تعدو في المنزل في فزع هربًا منها، ولكنها كلما ابتعدت

خطوة اقتربت منها النيران خطوات حتى وصلت إلى آخر غرفة في المنزل، والمُلحق بها شرفة كبيرة تطل على الشارع الرئيسي، وحينما فكرت أن تغلق الباب لم تجد أيَّ أبواب؛ فصرخت في ذعر وهي تتجه نحو الشرفة تطلب العون، ولكن ضاع صوتها وسط أصوات الاحتفالات بالمولد.
كانت تصرخ في كل أولئك الذين يملؤون الشارع دون أن يلتفت إليها أحد حتى انحبس صوتها تمامًا، نظرت إلى الشارع فوجدت الارتفاع شاهقًا، بالرغم من أن المنزل بأكمله مكون من طابقين فقط، والنيران تقترب بسرعة مرعبة؛ لذلك لم يكن لديها رفاهية الاختيار، قفزت من الشرفة بمنتهى الهدوء، فأحيانًا لا تكون النجاة إلا في السقوط، ولكن الأرض بعيدة وكلما شعرت أنها قاربت على الارتطام بها ابتعدت أكثر، حتى شعرت فجأة بقوة الاصطدام فاغمضت عينيها في ألم.

***

انتفضت (ليلى) وهي تفتح عينيها فجأة، وتنظر حولها في رعب متوقعة أن تسمع ضجيجًا، وأن ترى الكثير من الناس ملتفين حولها بعد اصطدامها بالأرض، ولكنها وجدت نفسها في حجرة تسبح في اللون الأبيض والهدوء التام خالية إلا منها و (يحيى) الذي يقف صامتًا بجوار تلك النافذة الوحيدة في الحجرة، ينظر إلى الخارج في هدوء، وعلى وجهه ملامح محايدة تمامًا، فأخذت تتطلع إليه في حنين، وهي تتذكر رؤيتها لـ (نهلة)، ثم لم تشعر بشيء بعد ذلك.
شعرت بآلام رهيبة في جسدها حينما حاولت الاعتدال في فراشها كأنها سقطت بالفعل من هذا الارتفاع الشاهق؛ فصدرت منها آهة مكتومة جعلت (يحيى) يلتفت إليها في قلق تحوَّل إلى ابتسامة تعشقها، وهو يقترب منها وينظر إليها بحنان، جعلها تنظر إلى سقف الغرفة متحاشية النظر إليه، وتسأله:

ـ ماذا حدث؟

جلس بجوارها، وهو يسألها:

ـ متى كانت آخر مرة تتناولين فيها الطعام أو الشراب؟

ـ لماذا؟

فأجابها بطريقة معاتبة:

ـ جفاف وسوء تغذية، وضغط الدم كان منخفضًا جدًا 60/ 40.

شعرت بضيق واختناق شديدين حينما لاحظت ذلك المحلول المتصل بيدها، فمنذ عمليتها الجراحية الأولى وهي تكره المستشفيات والتواجد بها ولو لمجرد الزيارة؛ لذلك تحاملت على نفسها، وحاولت ترك الفراش، وهي تقول له في ضيق:

ـ أريد أن أخرج من هنا فورًا.

هبَّ (يحيى) واقفًا يحاول منعها من النهوض، وهو ينعتها بالجنون ويخبرها أنها تحتاج إلى الراحة التامة، على الأقل حتى ينتهي ذلك المحلول، ولكنها انفعلت بقوة وهي تبعده عنها، وقد أصرَّت على الرَّحيل، ثم ما لبثت أن شعرت بدوار شديد، فأعادها إلى الفراش وهو ينظر إليها في غضب واضح. اعترفت (ليلى) بداخلها أنها بالفعل مريضة، ولكنها تعلم أن وجودها هنا سيزيد حالتها سوءًا؛ لذلك نظرت إليه في استجداء، وهي تقول في ضعف:

ـ (يحيى)، لأجل خاطري أخرجني من هنا.

قالتها بتلك الطريقة التي يستحيل أن يرفضها أحد، قالتها ببراءة طفلة، ورقة وضعف أنثى، ثم أتبعتها بتلك النظرة من عينيها الواسعتين والتي يستحيل أن يراها أحد ويرفض لصاحبتهما طلبها، فعقد (يحيى) حاجبيه في ضيق حينما شعر أنه وقع تحت تأثير طريقتها، وقال لها:

ـ حسنًا انتظري هنا، لا تتحركي من الفراش حتى أعود.
وما هي إلا عشر دقائق حتى كانا ينطلقان بسيارته، لا تعرف إلى أين، ولكنها لم تهتم، أسندت رأسها إلى الخلف، وشردت في الطريق وهي تفكر فيما يحدث لها مؤخرًا؛ فهي تنهار بسرعة شديدة تشبه سرعة سقوطها في كوابيسها.
لم تتعجب من تكرار منزلهم القديم في أحلامها؛ فهي معتادة على ذلك منذ أن تركوه، ولكن لماذا دائمًا السقوط؟ لماذا دائمًا الألم؟
تسلل إليها الهواء في رقة، مداعبًا وجهها وشعرها الذي ما زال طليقًا دون حجاب، نظرت إلى السماء، وهي تتساءل لماذا دائمًا يلازمها ذلك الشعور بأنها تبحث عن شيء ما لا تعرف كنهه؟ ولا تعرف أين من المفترض أن تجده؟
في البداية ظنت أنها تبحث عن السعادة، ولكنها اكتشفت أن السعادة إحساس لا يدوم، هي مجرد لحظات وقتية نتذكرها فتعيننا على تجاوز إرهاق الحياة، لحظات صافية نحيا على عبيرها سنوات وسنوات، ثم ظنت أنه الشغف الذي افتقدته في كل شيء، ولكنها اكتشفت أيضًا أن الشغف ماهو إلا خدعة، إحساس مهما كان ضروريًا، فهو لا يستمر طويلًا؛ فكل شيء في الحياة يتحول بطبيعة الحال ـ دون أن ندري ـ إلى روتين فنفقد شغفنا به، ثم ظنت أنها تبحث عن الحب، ولكنها أدركت أن الحب مؤلم، إحساس غير مضمون، بالتأكيد لن تقرن حياتها بشيء ربما تجده وربما لا، بالتأكيد لم يخلقنا الله ليتركنا للاحتمالات، أو ليجعل سعادتنا في يد أشخاص ربما لا يجمعنا بهم أبدًا.
الله..
ألا يراها الله؟ ألا يعلم بحيرتها وألمها؟ أين يقف الله؟ أليس من المفترض أن يكون مع المنكسرة قلوبهم؟ وهي قلبها مفتت متألم، فلماذا لا يمد الله يده

وينتشلها من ذلك التيه؟ أليس هو ربُّ القلوب؟ أو لا يعلم بأن قلبها ضعيف مريض مسكين لم يكره يومًا، ولم يأثم أبدًا؟

كان (يحيى) ينظر إليها بين الحين والآخر، ثم يعود بعينيه إلى الطريق مرة أخرى، لا يعلم شيئًا عن تلك الحرب الدائرة بين قلبها وعقلها، يحاول إيجاد كلمات ليبدأ بها أيَّ حوار دون جدوى؛ لذلك قام بتشغيل المذياع لكسر ذلك الصمت المميت الذي سيطر على الأجواء، وما هي إلا لحظات حتى انساب صوت الفنانة الراحلة (ذكرى) في واحدة من أجمل أغانيها: "عارف أنا نفسي في إيه"، فابتسم كلاهما دون اتفاق، هو في حنين وهي في حزن؛ فتلك كانت من أغانيها المفضلة.

أخذ (يحيى) يدندن مع الأغنية، بينما أغمضت (ليلى) عينيها، مستمتعة بكلماتها، وبصوته الذي افتقدته طويلًا، ثم راحت في سُبات عميق، لم تفق منه إلا حينما شعرت بتوقف السيارة، لتجد الساعة الواحدة بعد منتصف الليل؛ أيْ أنها لم تنم أكثر من نصف ساعة، ولكنها كانت كافية بالنسبة إليها، يكفيها أنها بلا كوابيس أو سقوط.

ترجَّل (يحيى) من السيارة، ثم دار حولها حتى وصل إليها، وأخد يحلُّ برفق وحرص ذلك الخرطوم الرفيع الموصول بيدها، وهو يقول:

ـ لقد انتهى المحلول، بالشفا إن شاء الله، هيا بنا.

نظرت حولها في عدم فهم وهي تترجَّل من السيارة، حينما أمسك هو بيدها كي تستند إليه، ولكنها توترت بمجرد ملامسة يده، فسحبت يدها سريعًا، وقالت في توتر وهي تنظر حولها كأنها تستكتشف المكان:

ـ أنا بخير، لقد أصبحت أفضل بكثير الآن، أين نحن؟

لم يعلِّق على ردة فعلها سوى بابتسامة لم ترها وهو يجيبها، قائلًا وهو يسبقها إلى البحر:

ـ هناك محلول آخر بعد ساعتين، ولا يمكن أن أتركك وحدك وبالطبع لن توافقي أن تأتي عندي؛ فرأيت أن هنا أفضل مكان، متأكد أنه سيعجبك.

لحقته ببطء وهي تنظر حولها لتستكشف ذلك المكان الغريب الذي كان خاليًا تمامًا، اللَّهم إلا من بضعة مراكب صيد صغيرة، ألوانها باهتة وأخشابها متآكلة، مكان بسيط جدًا ذو سحر خاص، ورائحة مميزة منعشة، ولا يضيئه سوى ضوء القمر.

كانا قد اقتربا كثيرًا من البحر حينما توقف (يحيى)، وأشار إلى إحدى المراكب الرَّاسية، قائلًا بفخر:

ـ أقدم لك (شاهيناز).

ابتسمت (ليلى) في حب وهي تنظر إلى المركب الصغير الذي يقف على الشاطئ بطريقة تخبر من يراه أنه متأهب للرحيل في أيِّ لحظة، تمامًا كصاحبه، ثم اتسعت ابتسامتها وهي تفكر أن (يحيى) مثلها يحب أن يمنح لكل شيء لديه اسم فحيَّت المركب بإيماءة من رأسها، وقد اتسعت ابتسامتها في سعادة واضحة.

صعد إلى سطح المركب، ثم مدَّ يده إليها كي يساعدها في الصعود، وللمرة الثالثة في ليلة واحدة تقترب منه بطريقة تمنتها منذ سنوات، ولكنها تلك المرة لم ترتبك، ولم ينتفض جسدها حينما طوَّق خصرها بذراعه حتى استقرت بداخل المركب، مركب صغير للصيد لا يتسع لأكثر من شخصين، ولكنه واسع مريح، يكفي أنه يجمعها به.

جلست بطول المركب على أرضيته، وانضم هو إليها فأصبحا متجاورين لا يفصلهما سوى سنتيمترات قليلة، وما إن استقر في جلسته حتى أعاد ظهره إلى

الوراء مسندًا رأسه إلى مقدمة المركب بطريقة تجعل عينيه تنظران مباشرة إلى السماء؛ ففعلت مثله تمامًا، وما إن وقعت عيناها على السماء، حتى هتفت بانبهار:

ـ الله.

ابتسم (يحيى) وهو ينظر إلى جانب وجهها، ثم قال وهو يعود بعينيه إلى السماء مرة أخرى:

ـ ألم أقل لكِ أن المكان سيعجبك.

لم تجبه، ولكنها ظلت تتطلع مشدوهة في انبهار إلى شكل السماء المليء بالنجوم كثوب ملكة مرصَّع بالآلاف من فصوص الألماس، ولأول مرة منذ أيام شعرت بهدوء نقيٍّ وراحة صافية لا يتخللها أيُّ شيء، توقف كل شيء بداخلها فجأة وشعرت بسلام عجيب حينما تداخل صوته مع تلك اللوحة الرائعة الموجودة في السماء.

أخذ يتكلم معها بحرية وأريحية كأن الوصل لم ينقطع بهم أبدًا، كأنهم على علاقة دائمة هادئة لا يشوبها أيُّ شائبة، ثم سألها بعفوية:

ـ ألم تتمني من قبل أن تقومي برحلة صيد؟ سأصطحبك يومًا لنصطاد سويًا.

أدارت رأسها ونظرت إليه في عدم تصديق من أنه ما زال يتذكر تلك الأمنية التي أخبرته بها منذ أكثر من عشر سنوات؛ فعادت بعينيها إلى السماء دون أن تجيبه وقد صدمها الرقم، عشر سنوات؟

عشر سنوات مرُّوا دون حتى أن تنتبه، لم يزد فيهم سوى عدد سنوات عمرها، وحزن قلبها ولم يتغير شيء في حياتها سوى أنها أصبحت أكثر بؤسًا وكرهًا لتلك الحياة.

عشر سنوات وهي تقنع نفسها أنها لم تحبه؛ بل إنه كان مجرد إعجابًا عابرًا، وأنها تخلصت منه بالفعل، وفي ليلة واحدة اكتشفت أنها واهمة.
عشر سنوات عمر آخر لا طاقة لها بتكراره، وهي في تلك العتمة التي تحاوط قلبها من كل مكان، تائهة لا تعرف أين من المفترض أن تجد الراحة والسلام اللذيْن كلما بحثت عنهما زادت عتمتها وتوهتها.
توقف (يحيى) عن الحديث حينما شعر أنها لم تعد تستمع إليه وقد كان محقًا، فلم تلاحظ (ليلى) أنه صمت، نظر إلى جانب وجهها؛ فوجدها شاردة تمامًا، وعيناها معلقتان بالسماء كأنها تنتظر معجزة ما ستهبط عليها، ثم عقد حاجبيه حينما رأى تلك الدمعة الهاربة من جانب عينيها؛ فأخذ يتساءل في حزن عمَّا أصابها. ترى ما الذي حدث لتلك الطفلة ذات الأربعة وعشرين عامًا التي اعترفت له بإعجابها به بمنتهى البراءة منذ المحادثة الأولى، تلك الطفلة التي ذاق معها طعم البراءة في النساء، والذي ظن أنه اندثر منذ زمن؟
ثم تلك الفتاة التي رأته بانبهار طفلة، وتعلقت به باندفاع مراهقة، واحتوته بقلب أنثى، وأدركت كل عيوبه ومميزاته بعقل امرأة ناضجة؛ فعاملها هو كطفل مدلل لا يدرك قيمة الأشياء الثمينة الحقيقية، يعبث بها وقتما يريد، ويلقيها دون اهتمام وقتما يشاء، فلا يؤثر ذلك فيها على الإطلاق، بل على العكس تمامًا كانت دائمًا موجودة حوله كلما احتاج إليها وجدها، وكلما وجدها تجاهلها بعِناد غير مبرر.
كلما حفرت بكرامتها وكبريائها طريقًا جديدًا للعودة، أهال هو التراب عليه مرة أخرى بمنتهى البرود، حتى اختفت منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، اختفت تمامًا.

كان يقنع نفسه أنها لم تعنِ له شيئًا على الإطلاق، مجرد إعجاب عابر، وأنه لم يتعلق بها، بل تعلق باهتمامها به، بحبها الذي كان يظهر واضحًا جليًا كلما التقت العيون بالرغم من تجاهل أصحابها الواضح لبعضهما البعض، ولكن كل ذلك انهار البارحة حينما رآها، فلم يكن يتصور أن رؤيتها المفاجئة تلك ستبعثره هكذا، لم يكن يدرك أنه يفتقدها بكل تلك القوة.

حينما وصل إلى تلك النقطة تنفس بعمق بطريقة مسموعة كي يجذب انتباهها، ولكنها لم تلتفت إليه فاعتدل في جلسته، وبعد تردد دام للحظات ناداها بهدوء:

ـ ليلى.

التفتت إليه بعينيها؛ فسألها في رقة:

ـ ماذا بكِ؟ لِمَ كل هذا الحزن؟

لم تجبه، بل أشاحت بعينيها بعيدًا عنه مرة أخرى، وعادت إلى السماء كأنها وجدت ضالتها بها؛ فعاد كلاهما إلى ذلك الصمت المزعج مرة أخرى ولكن ما هي إلا لحظات حتى قطع ذلك الصمت مقترحًا عليها:

ـ ما رأيك أن نعقد اتفاقًا؟

نظرت إليه نظرة أنها تستمع إليه؛ فأكمل قائلًا ببعض الحماس:

ـ لنجعل تلك الليلة خارج كل شيء بيننا..

تحولت نظرتها إلى الاهتمام، فأكمل قائلًا:

ـ افعلي أيَّ شيء تريديه، تحدثي في أيِّ شيء يؤلمك، اصرخي أو ارقصي، أيُّ شيء دون تفكير، كأننا أغراب لن نرى بعضنا البعض مرة أخرى.

اعتدلت في جلستها هى الأخرى وهي تنظر إليه في استغراب، لمست كلماته قلبها، فقد كان يتحدث بحنان جارف، وصدق واضح ورغبة حقيقية في التخفيف عنها، ولكن هل تستطيع هي فعل ذلك؟ هل تستطيع أن تخرج خارج

نفسها، وتفعل أو تقول كل ما تريده بحرية دون خوف وتفكير طويل؟ بل هل تستطيع أن تفعل ذلك معه هو بالذات وتكرر نفس الخطأ مرة أخرى؟

لم تتحدث مع شخص باطمئنان وثقة مثلما فعلت معه، لم تخبر أحداً عن مشاعرها بيسر وسهولة كتلك التي شعرت بها معه؛ بل لم تتمنَ يومًا أن تتحدث دون توقف مع إنسان مثلما تمنَّت وهي بصحبته، ولكن ماذا كانت النتيجة؟

لقَّنها درس حياتها وجعلها في غربة دائمة؛ فبعد رحيله شعرت بوحشة مؤلمة تحولت إلى خوف من كل علاقة محتملة وهروب من كل شخص يحاول التقرب منها، أفقدها ثقتها في نفسها وفي كل من حولها، فزاد صمتها وتعمقت وحدتها.

هل تستطيع تخطي كل ذلك وتكرر الخطأ مرة أخرى بتلك السهولة؟ ولكن لِمَ لا؟ ما الذي ستخسره؟ وهل سيضر الشاة سلخها بعد ذبحها؟

لا تعتقد أن هناك أسوأ مما تشعر به الآن، فلماذا لا توقف ساعة حزنها ولو لليلة واحدة؛ فصُحبته رائعة في كل الأحوال، وربما بعث الله به إليها الآن؛ ليعطيها ليلة أخرى تعينها على سنواتها القادمة.

ـ هل تحب المسقعة؟

سألته بعفوية دون تفكير، فطالما كان هذا السؤال يشغلها كثيرًا، خاصة كلما كانت تقوم بإعداد تلك الأكلة والتي هي بارعة في طبخها.

عبس في استغراب، ثم ما لبث أن اتسعت ابتسامته وهو يفكر أن تلك المرأة لن تنضج أبدًا، وأجابها قائلًا:

ـ جدًا.

فابتسمت في رضا ونظرت إلى السماء، وقالت:

ـ المكان هنا ساحر، على فطرته.

ثم عادت بعينيها إليه، وقالت بمنتهى السَّلام النفسي:

ـ أتمنى حينما أموت أن يدفنوني هنا..

ثم سألته بمنتهى الهدوء:

ـ لماذا ابتعدت فجأة هكذا دون مقدمات، ودون كلمة واحدة.

بُهت من سؤالها المفاجئ والذي لم يكن يتوقعه على الإطلاق، فقد كان كبريائها يمنعها من مثل تلك الأسئلة، وكان ذلك يوفر عليه الكثير. فكَّر كثيرًا، ولكنه لم يجد إجابة لسؤالها، فأيُّ إجابة ستزيد من ألمها؛ لذلك سألها مراوغًا:

ـ هل ما زالت الإجابة تفرق معكِ بعد كل تلك السنوات؟

ـ فوق ما تتخيل.

ـ المشكلة فيّ وليس فيكِ

ـ هل تعتقد أن تلك إجابة كافية؟ بل هل تعتقدها إجابة من الأساس؟

أطرق برأسه، وقال:

ـ إنها الإجابة الوحيدة لديَّ.

أشعلت إجابته نيران غضبها من جديد والتي كانت قد بدأت في الخمود بعض الشيء؛ فشعرت أنها تكرهه بشدة، يالقسوة هذا الرجل، ويا لغبائها! اعتراها ذلك الضعف المهين مرة أخرى، فبدأت دموع عينيها تتجمع من جديد معلنة بداية نوبة بكاء حارّة، لا تظن أنها ستنتهي أبدًا؛ لذلك قررت أن توفرعلى قلبها تلك المهانة التي على وشك الحدوث، قررت أن ترحل لتنهار بمفردها، يكفيها ما رآه من ضعفها وقلة حيلتها حتى الآن؛ فقالت بغضب واضح لم تحاول أن تخفيه، وهي تحاول الوقوف، قائلة:

ـ أريد أن أرحل حالًا.

وبدون تفكير أمسك بها ومنعها من النهوض، قائلًا في توسل:

ـ صدقيني يا (ليلى) أنا لا أملك سوى تلك الإجابة، المشكلة فيّ. أنا الذي كنت أجبن من أني أحافظ عليكِ أو على أيٍّ أحد في حياتي.

ثم أكمل وقد اقترب منها، ناظرًا في عينيها مباشرة:

ـ لكنني لم أنسكِ يومًا.

قالها بصدق بيِّن، فهدأت حركتها تمامًا، بينما كان قلبها ينبض بسرعة شديدة، كأنها لم تتوقف عن العَدْوِ منذ زمن، ولكن العجيب أنها شعرت براحة عجيبة حينما أدركت أنها كانت ذات يوم تعني له شيئًا ما.

أسبلت عينيها ففرَّت منهما دمعتان ساختنتان وهي تفكر في سعادة لا تتناسب إطلاقًا مع الموقف، إن إحساسها كان صادقًا، وأنه لم يكن مجرد حلم، لم يكن مجرد خيال امرأة وحيدة محرومة، وهنا سقطت كل أسلحتها، تقهقر غضبها، وحلَّ محله إحساس قوي بالاحتياج إليه، وكأنما كان يقرأ أفكارها، وبحركة واحدة من يده أسكنها صدره، وبدون أيِّ مقاومة منها دفنت رأسها في رقبته، وبدأت في بكاء صامت.

فلتقضي تلك الليلة بأكملها معه، تلك الليلة فقط ثم ترحل إلى الأبد، فهي تعلم جيدًا أن قصتهما لم ولن تنتهي، فلتأخذ منه ذكرى أخيرة تعينها على ما تبقى لها من حياة؛ فذكراه الأولى شاخت مبكرًا من كثرة استخدام مساحيق التجميل، لتبدو ذكرى تليق برجل أعطته قلبها، ولم يعطها هو سوى الرحيل. كانت تعلم أن تلك الضمة هي الأولى لها معه، وستكون الأخيرة، ولكنها لم تتردد كأنها أدمنت ألمه؛ فزادت من قوة تعلقها بصدره، وهي تتساءل في ألم لماذا نبحث دائمًا عن أرواح خاوية لنسكن إليها، لماذا نتعلق بالراحلين؟ ننتظر الأمان من قلوب مشرَّدة، ونتوقع الرحمة من نفوس عابثة، نتشبث بالأمل في أقدام تائهة، ونبحث

عن انعكاس أرواحنا في عيون مشوشة، ثم وفي النهاية ينتهي بنا الأمر وحيدين، وحيدين تمامًا.

كانت دموعها الصامتة الساخنة تخترق صدرة مباشرة إلى قلبه، تعتصره في حزن فيضمها إليه أكثر، تركها تخرج كل ما بداخلها وهو يتحسس شعرها الناعم في حنان، وهو يراقب نفسه باستغراب شديد.

لم يترك امرأة من قبل وعاد إليها؛ فهو دائمًا ما يغلق باب علاقاته إلى الأبد، ولكنه لا يعرف ما الذي اعتراه منذ البارحة؟ لأول مرة يترك لقلبه زمام الأمور، أقنع نفسه بأنها تلك الليلة فقط، ثم سيعود كل شيء بينهما إلى سابق عهده، ولكنه كان يعلم في قرارة نفسه أن الكثير من الأشياء ستتغير بعد تلك الليلة، ولن يعود أيُّ شيء بداخله كما سبق على الإطلاق، يعلم خطورة ما يفعله الآن عليها وعليه، ولكنه لا يستطيع التوقف، لا يستطيع تركها لذلك الحزن المرعب الذي يكاد أن يقضي عليها.

توقفت (ليلى) عن البكاء، ولكنها ظلت مستكينة على صدره دون كلمة، فقبَّل جبينها في رقة، ثم أسند ذقنه على شعرها، وهو يزيد من قوة احتضانها لتتنفس هي في حرارة، وتغمض عينيها في إرهاق.

ظلا كليهما هكذا بعضًا من الوقت صامتين متلاحمين، فسألها في حنان محاولًا إخراجها من نوبة الحزن تلك التي تجتاحها:

ـ تمني أمنية حالًا؟

ـ أتمنى أن أكرهك.

قالتها بطريقة صدمته، وجعلته يكره أنانيته؛ فأمسك بوجهها بين يديه، وقال لها في توسل وهو يقربه منه:

ـ إياكِ أن تكرهيني يا (ليلي)، أرجوكِ مهما حدث لا تكرهيني، عديني بذلك.

وبدون تفكير منه أو اعتراض منها التحمت شفاهما في قبلة طويلة بدأت ناعمة، ثم أصبحت قوية محمومة عصفت بكل ما تبقى من أيِّ أفكار للتراجع، كان يلتهم شفتاها برقة ممزوجة بنهم كأنه كان يعتذر منها عن كل شيء، كأنهما يتحاوران ويتعاتبان بلغة خاصة لن يفهمها سواهما؛ فقد قالت تلك القبلة كل شيء عجزت عنه الألسن وتعففت عن ذكره النفس.

هدأت نيران غضبها، واشتعلت بدلًا منها نيران أقوى لا يطفئها الابتعاد ولا الاقتراب، لا يطفئها سوى الاستمرار حتى النهاية، نيران الرغبة.

لم يعلم كم من الوقت طالت قبلتهما، ولكنه لولا تلك الأَنَّة التي صدرت منها؛ لربما ظل يقبلها إلى الأبد، وبالرغم من ذلك لم يعتق شفتيها حتى نزعت نفسها منه، وهي تشهق محاولة التنفس؛ ليذهب هو ويشبع شفتيه بتقبيلها في أماكن أخرى.

كانت مغمضة العينين مُفتحة الرغبة لا تعترض على يديه اللتين تتجولان بمنتهى الحرية على جسدها، ولا على شفتيه اللتين تقبِّلان كل ما تقعان عليه، كأنها امرأة محرومة لم تذق طعم الشهوة واللَّذة من قبل، فإذا كانت تلك طعم الشهوة الحقيقية، إذن فهي ما زالت عذراء حتى اللحظة التي وطأت شفتاه شفتيها.

لم يتوقف (يحيى) للحظة واحدة، فتعالت الأنفاس اللاهثة لتغطي على صوت الأمواج العالي، والرغبة تكاد تصل إلى السماء.

أما هي فقد كانت امرأة أخرى غير تلك التي صاحبتها طوال حياتها، فلم تذكر أنها شعرت من قبل مع زوجها بتلك الرغبة الجامحة، وذلك الشعور المسيطر باللَّذة فقط.

لم تشعرمعه أبدًا أنها تريد المزيد، إنها لا تريده أن يتوقف أبدًا؛ وهنا فتحت عينيها فجأة في رعب وتصلب جسدها، وانطفأت كل النيران التي كانت تأكلها منذ لحظات، لتتحول إلى برودة مميتة. إلا أن (يحيى) من قوة شهوته لم يشعر بكل ذلك التغير الذي طرأ عليها، فظل يعبث بجسدها وهي مستسلمة بسبب الصدمة لا بدافع الرغبة..

كيف تفعل ذلك؟ هل كذبت الكذبة ثم صدقتها؟ هل صدقت ما قالته لأمها أنها قد حصلت على الطلاق، وأصبحت تتعامل على ذلك الأساس؟ كيف تقع في الإثم بتلك السهولة؟ هل هذه هي الذكرى التي تريد أن تحيا معها إلى الأبد؟ ذكرى خيانتها؟

صرخت ليتوقف، ثم ابتعدت عنه في رعب وهي تحاول أن تستر جسدها الآثم، بينما كان ينظر إليها بأنفاس لاهثة وهو لا يفهم شيئًا. أخذت تحرِّك رأسها يمينًا ويسارًا في هيستيريا، وهي تحاول أن تقول شيئًا ما، ثم وبعد عدة محاولات للحديث، قالت له وهي في صدمة من نفسها:

ـ أنا متزوجة.

***

الأجواء صاخبة على ذلك الشاطئ، النيران مشتعلة في أوانيها المخصصة لذلك، وموزعة بشكل متساوٍ مبهر، والأضواء قوية ملونة تحيل ذلك الليل إلى نهار، وهي تتحرك بشكل منظم مع تلك الأغاني الأجنبية التي يتراقص عليها معظم الحاضرين بحركات غير منتظمة، ولكنها تليق بتلك الموسيقى المجنونة.

حفل كبير صاخب مليء بالحضور، والكل يرقص على ليلاه، وكانت (ليلى) ضمن الحضور، وضمن الراقصين تتمايل يمينًا ويسارًا بحركات حادة عصبية

أشبه للانتفاض منها إلى الرقص، كأنها طير مذبوح يتراقص في نزعه الأخير قبل خروج الروح منه نهائيًا.

ترقص بجسد منهك لم يذق طعم النوم منذ يومين، تحديدًا منذ تلك الليلة مع (يحيى) والتي أدركت فيها أنها خسرته إلى الأبد.

جسد كرهته وكرهت تفاصيله منذ أن تغلب عليها وترك نفسه لرجل غريب يعبث به، ولكن الحقيقة لم تكن هي التي ترقص بل كانت نسختها المشوهة، نسختها الآثمة، طوال حياتها تخشى لحظات الاختبار الحقيقية، لحظة الاختبار التي قد يتحول فيها الرجل الصالح إلى شيطان رجيم، وتصبح العاهرة من الملائكة، وقد حدث ما كانت تخشاه، ففي لحظة الاختبار الحقيقية تبخَّر كل شيء، تحوَّلت إلى عاهرة، هكذا كانت تنعت نفسها وهي تنظر إلى وجهها في المرآة.

شعرت أن الجو يزداد سخونة، والهواء يقل من حولها، بينما تلاحقت أنفاسها في سرعة، وبدأ العرق يغزو كل أنحاء جسدها؛ فتوقفت عن الرقص، وهي تمسك صدرها في ألم وتتنفس بصعوبة.

ـ ارحمي نفسك.

قالتها (نهلة) بصوت عالٍ ليعلو على صوت الموسيقى، وهي تمسك بيد (ليلى) وتجذبها برفق من بين تلك الجموع الراقصة دون مقاومة من الأخيرة، حتى وصلت بها إلى ذلك المكان البعيد نسبيًا عن الزحام حيث كان يجلس مجموعة من أصدقائها من الجنسين، فأجلستها (نهلة)، ثم جلست بجوارها وهي تسألها:

ـ ألم تتعبي؟ هل ستقضين الليلة كلها في الرقص؟

لم تجبها (ليلى)، بل مدَّت يدها، والتقطت من فوق المنضدة علبة سجائر لا تعرف صاحبها؛ لتتناول منها سيجارة وتشعلها في صمت وهي تعود بظهرها إلى الوراء، وتنفث دخانها في بطء وهي تتطلع إلى ما حولها في لا مبالاة.
المنضدة مليئة بعلب السجائر والحشيش وزجاجات البيرة وكافة أنواع الخمور، والجو معبأ بأدخنة السجائر كأنهم في غرفة مغلقة بلا نوافذ أو أبواب، لا على شاطئ مفتوح، ولكنها أيضًا لم تهتم.
على يمينها تجلس (نهلة)، وعلى يسارها شاب لم تتبين ملامحه إلا عندما وجدته يمد إليها يده بسيجارتين مصنوعتين يدويًا؛ فأشارت له بالسيجارة التي تدخنها، ولكنها فوجئت بـ(نهلة) تسحب من يدها تلك السيجارة، وهي تقول لها في حماس وهي تأخذ السجائر من يد الشاب:
ـ لا أحد يرفض يد (تيمو)، إنها سيجارة خاصة.
أعطت (ليلى) إحداهما، ثم أشعلت الثانية وبدأت في مشاركتها مع ذلك الشاب الجالس بجانبها من الناحية الأخرى، ونسيت أمر (ليلى) تمامًا.
أخذت (ليلى) تتطلع إلى سيجارة الحشيش التي في يدها في صمت. الآن عرفت لماذا كانت دائمًا تسقط في أحلامها، حتى إنها في أحدها هي التي اختارت السقوط، تمامًا كما تختاره الآن، إذن فلتتوقف عن المقاومة؛ فالمقاومة ستزيد من ألم الارتطام، وهي لم يعد في وسعها تحمل أيِّ آلام جديدة، ولتترك جسدها للجاذبية لتصل إلى نهاية القاع، فقد اكتشفت أن القاع أيضًا له درجات، وهي تتجاوزها بمنتهى السرعة والبراعة.
أخرجتها من أفكارها القدَّاحة التي أشعلها (تيمو) أمامها، وكأنه يعجل من سرعة سقوطها، فأشعلت السيجارة دون تردد ودون أن تنظر إليه، وبدأت في

تدخينها كأنها معتادة على ذلك طوال حياتها، بل إنها زادت عليها كوباً من الخمر؛ ذلك الذي أخذته من يد (نهلة) وسط دهشة واستغراب الأخيرة.
لم تكن مرتها الأولى في تدخين الحشيش، ولكنها كانت أول مرة تتناول أيَّ نوع من أنواع الخمور، وبالرغم من طعم الخمر البشع إلا أنها أكملت الكوب حتى آخره، وطلبت المزيد وهي تفكر أن هذا الحشيش من النوع الممتاز، فقد شعرت بخدر لذيذ، ومع كل نفس من تلك السيجارة الملعونة كان الخدر يسري أسرع في جميع أنحاء جسدها، إلا قلبها الذي كان يصرخ من الألم، ويصدر نغزات مميتة إلى صدرها؛ فتتجاهله تمامًا وتعانده بالمزيد من التدخين.
نظرت إلى (نهلة) التي كانت مشغولة بحديث لا يبدو بريئًا مع الشاب الجالس بجوارها، وهي تتساءل ترى متى بدأت (نهلة) في السقوط؟ حينما بدأت تنقم على حياتها البسيطة، وأسرتها المتواضعة؟ أم حينما تعددت علاقاتها بشباب المدينة دون أن تهتم بسمعتها التي أصبحت في منتهى السوء؟ حينما خلعت الحجاب؟ أم حينما وصلت لما تراها عليه الآن؟ ترى ما الذي يفرقها عن (نهلة) الآن؟ ربما تلك الأخيرة أفضل منها؛ فعلى الأقل كانت واضحة منذ بدايتها.
سعلت بقوة، فتألمت ملامحها من قوة السعال وما يصحبه من آلام مبرحة في نصف صدرها الأيسر، حتى إن (نهلة) شعرت بالقلق عليها، فقالت لها وهي تراها تتناول زجاجة جديدة من البيرة:
ـ يكفي هذا يا (ليلى).
أومأت (ليلى) برأسها علامة الموافقة، وقالت لها بلعثمة:
ـ آخر واحدة.
نظرت إليها (نهلة) في عدم فهم، ثم قالت لها في شفقة:

ـ لا أصدق أنكِ (ليلى) التي أعرفها، إما أن أخلاقك ساءت على كِبر أو أنكِ مذبوحة.

همَّت (ليلى) أن تجيبها، ولكنها سعلت مرة أخرى بقوة انخلع معها صدرها؛ فتضرَّج وجهها بأكمله بالاحمرار، وهي تمسك كتفها الأيسر في ألم، فأخذت منها (نهلة) زجاجة البيرة عنوة، وقالت لها بلهجة آمرة:

ـ يكفي هذا، لقد طلع النهار، هيا لأقوم بتوصيلك.

وفي أقل من نصف الساعة كانت (ليلى) تترجَّل من السيارة دون أن تودع (نهلة) التي نظرت إليها طويلًا بشفقة قبل أن تنطلق مباشرة بسيارتها عائدة إلى أصدقائها، أما (ليلى) فلم تكن على ما يرام على الإطلاق، سارت ببطء وإعياء شديدين، تترنَّح يمينًا ويسارًا، وكل ما تريده الآن أن تلقي بنفسها فوق الفراش، لتذهب في نوم عميق تمنت أن يتحول إلى غيبوبة تبتلعها فلا تشعر بشيء، وربما تستيقظ منها فتجد أن كل ذلك مجرد حلم من أحلامها البشعة؛ لتبتسم في سخرية وهي تفكر كيف أصبح واقعها أبشع من أحلامها.

دخلت إلى غرفتها، وهي تجرُّ قدميها بصعوبة، جسدها ينتفض وقد بدأ العرق يغزوه من كل ناحية، وما إن أغلقت باب الغرفة حتى أسرعت إلى الحمام؛ لينفجرمن فمها سيل من القيء جعلها تشهق وتتأوه في ألم، وهي تتجه إلى حوض غسيل الوجه بجسد مرتعش، حيث وضعت رأسها بالكامل تحت صنبور المياه، وظلت هكذا فترة حتى شعرت أنها أصبحت أفضل قليلًا، وبينما كانت تجفف شعرها ورقبتها اصطدمت بصورتها في المرآة؛ فتراجعت منتفضة إلى الوراء في فزع.

لقد عادت مرة أخرى، تلك العجوز عادت مرة أخرى، ولكنها لم تعد عجوزًا طيبة مسكينة، بل أصبحت عجوزًا شمطاء مخيفة، عادت تلاحقها بعد أن ظنت

أنها تركتها هناك في منزل زوجها، ظنت أنها تخلصت منها إلى الأبد، وأنها بطلبها الطلاق وتحرُّرها من كل شيء قد عاد إليها شبابها، ولكن بعد كل ذلك عادت لتتملكها، عبرت كل تلك المسافة وتلك الحدود وعادت إليها مرة أخرى.

وبدون تفكير مدت (ليلى) يدها وكسرت المرآة في غضب وثورة، تريد أن تقتل تلك التي تطالعها في المرآة بملامحها المخيفة؛ لتكتشف أن كسر المرآة لم يخفها، بل جعلها تنتشر في جميع قطع الزجاج المكسورة تنظر إليها في تهكم وسخرية.

ظلت (ليلى) تنظر في كره إلى تلك العجوز، دون أن تلتفت إلى يديها التي تقطر دمًا وهي تستعيد ذكرى ذلك اليوم قبل عودتها إلى مصر، حينما حاولت أن تقتل تلك العجوز من قبل ولم تنجح، وقد أدركت توًّا شيئًا مهمًا؛ فابتسمت وهي تمدُّ يدها وتلتقط إحدى قطع الزجاج المكسور دون أن تعبأ بتلك الطرقات على باب الغرفة، والتي كانت تزداد قوة وحِدَّة.

وبدون أدنى تردد، أخذت تمر بحد قطعة الزجاج على شرايين يدها اليسرى، وقد أيقنت بعد التجربة أكثرمن مرة أن تلك العجوز لن تتلاشى إلا بتلاشيها هي، وكلما كانت تقطع جلدها كانت ملامح تلك العجوز تتبخر وتتلاشى.

العجيب أنها لم تشعر بذرة ألم، بل على العكس تمامًا شعرت أن تلك الجروح التي أحدثتها بيدها قد جعلت جروحًا أخرى في نفسها تلتئم، وبمنتهى الهدوء والوهن سارت كالمنوَّمة مغناطيسيًا إلى باب الغرفة لتعرف من الطارق، يدها تقطر دمًا، وقلبها يصرخ ألمًا، وما إن فتحت الباب ورأت زائرها، والتقت بعينيه الغاضبتين، ونظرته المذهولة حتى تلاشى تأثير الحشيش والخمر فجأة، ولم يبق سوى آلام صدرها المبرح.

تطلعت إليه في عدم تصديق وهو يقترب منها بهيئته الوقورة وعيناه اللتان كانتا تطلقان شرارة الغضب وهو يتطلع إلى هيئتها المذرية وشعرها الذي يقطر ماءً، لم تتحرك قيد أنملة وهي تنظر إليه، إلى آخر شخص كانت تتوقع رؤيته هنا.
(شريف) زوجها ينظر إليها نظرة مؤلمة جمعت بين شعوره بالخيبة منها، والذهول لما أصبحت عليه، نظرة ما لبثت أن تحولت إلى نظرة هلع حينما انتبه إلى يدها المذبوحة، حاولت أن تتحدث ولكنها لم تستطع، فقد ظنت أنها تلقت ما يكفي من الصدمات، ولن يؤثّر بها أيٌّ شيء آخر، ولكن رؤيته أثبتت عكس ذلك تمامًا.
تسارعت وتعالت ضربات قلبها حتى شعرت أنها تسمعها بأذنيها، وقد غزت قطرات غزيرة من العرق جبينها ووجهها، وهاجمتها آلام صدرها بشراسة لم تحدث من قبل، حاولت أن تتنفس ولكن تحولت أنفاسها إلى شهقات فزعة متألمة، وهي تمسك صدرها بيدها المذبوحة فتتناثر الدماء على كل شيء.
نظر إليها (شريف) في رعب، وقد فهم ما يحدث لها؛ فأسرع إليها محاولًا إنقاذها، ولكن نوبتها القلبية كانت أسرع منه، فوقعت (ليلى) بين دمائها فجأة بعد أن أعلن قلبها أنه لم يعد يتحمل أيَّ شيء بعد الآن.

***

ـ هل تتذكرين أيام المولد؟
قالتها (نهلة) في حنين وهي تنظر حولها إلى ساحة مسجد (سيدي طلحة) في طريق عودتهما من المقابر؛ فابتسمت (ليلى) وأومأت برأسها إيجابًا وهي تتطلع حولها إلى مظاهر المولد التي بدأت تظهر بوضوح.
كانت تبحث بعينيها عن ذلك المجذوب، لكنها لم تجده، وفي خلال ذلك وقعت عيناها على باب المسجد، لتتذكر الشيخ (جبريل) وتقرر الدخول لمقابلته،

فودعت (نهلة) على وعد بلقاء آخر في المساء، ثم اتجهت إلى المسجد ودخلت مباشرة إلى المقام، وهي على يقين أنها ستجده بالداخل ينتظرها.

في داخل المقام كان المكان مزدحمًا عكس اليوم السابق، ممتلئاً بأصناف من الناس، أُناس بسيطة على الفطرة، نساء بعباءات ورجال بجلابيب، وأُناس آخرون يبدو عليهم التَّمدن بملابس راقية ورجال ببزات رسمية، والجميع إما جالس يذكر الله، أو واقف أمام المقام يدعو الله ويطلب من صاحب المقام ما يريده، تمامًا مثلما رأت في مسجد سيدنا الحسين، ولكن تلك المرة لم تستغربهم (ليلى)، وإن كانت ما تزال تتساءل ما سر ارتباط مثل هؤلاء الناس بتلك المقامات؟ ومن أين يأتيهم اليقين في أنهم سيجيبون دعواتهم؟

وقفت تبحث بعينيها عن الشيخ (جبريل)، حينما وقعت عيناها بذلك البرواز الخشبي الكبير المعلَّق على إحدى جوانب المقام، والذي لم تلاحظه من قبل؛ فاقتربت في فضول حتى وقفت أمامه مباشرة، وبدأت في قراءة محتواه والذي كان عبارة عن تعريف بصاحب المقام؛ فبدأت تقرأ المكتوب به، والذي كان كالتالي:

(هوالشيخ طلحة أبو سعيد بن الشيخ مدين بن الشيخ شعيب التلمساني "أبو مدين الغوث" الذي يمتد نسبه إلى الإمام الحسين رضي الله عنه، ولد (رضي الله عنه) في القرن السادس الهجري عام 564 هجريًا، وعاش من العمر سبعة وستين عامًا، وانتقل في رمضان عام 631 هجريًا؛ أخذ الطريقة عن أجداده بتلمسان بالمغرب، وكانوا من أتباع سيدي أحمد الرفاعي (رضي الله تعالى عنه)، وقد مكث يطلب العلم والمعرفة بملازمة ابن عمه أحمد بن الحسين بن الحسيب النسيب (سيدي علي الرفاعي) مدة سبع سنوات اكتسب خلالها علوم الشرع، ولازم فيها اختلاء أورثه علم الحقيقة، قال له والده: اركب جوادك، وخذ

معك زوجتك (ابنة عمه الشريفة العفيفة)، وأينما يقف جوادك فانزل، واعلم أن هذا مقامك فتمكَّن منه، وانشر العلم والدين، فرحل الشيخ حتى استقر جواده في أرض (دميلقون) ـ كفر الشيخ حاليًا ـ وقال: ها هنا مقامي، والتفَّ حوله طالبو المعرفة، وظهرت له كرامات فكثر أتباعه ومحبوه ومريدوه، وأقاموا له مصلى في هذا المكان، ولما كثرت المنازل حول مقر إقامته أطلق على هذه المنطقة كفرالشيخ طلحة نسبة إليه، ثم اختصر فيما بعد إلى الاسم الحالي (كفر الشيخ)).

استمرت (ليلى) في القراءة وهي مذهولة من كل ما تقرأه وكل تلك المعلومات، ولا تفكر إلا في سؤال واحد، كيف عاشت هنا طوال تلك السنوات لا ترى شيئًا أمامها سوى ذلك المسجد الكبير؟ ولم تعرف أنه يرجع لأحد أكبر أولياء الله الصالحين، وأن هذا الولي مدفون هنا هو وابنه وحفيده؛ فطوال حياتها كانت تظن أنه مسجد مثل أيِّ مسجد آخر أطلقوا عليه اسم رجل صالح ولا شيء أكثر من ذلك، كانت ما تزال تقرأ حينما وصلت بعينيها إلى تلك الجملة:

(ومما ورد أيضًا عن أحد العارفين بالله تعالى أنه حضر وفاة سيدي طلحة، صاحب الوقت وسيدنا الخضر (عليه السلام)).

عقدت (ليلى) حاجبيها وهي تعيد وتزيد في قراءة تلك الجملة دون أن تستوعب منها شيئًا، وتتساءل: هل يقصدون سيدنا الخضر الذي كان بصحبة سيدنا موسى عليه السلام؟ كيف حضر وفاته وكيف حضر أيضًا الصحابة الكرام؟ ما هذا الكلام؟

ـ لا تتعجبي، الأرواح الطاهرة لا تموت، فما بالك بأرواح أولياء الله الصالحين.

انتفضت (ليلى) من ذلك الصوت، وحينما نظرت إلى مصدره وجدته الشيخ (جبريل) والذي كان يجلس بالقرب منها في ذات مكان البارحة ممسكًا

بمِسبحته، نظرت له في استغراب من كلماته، كأنه كان يقرأ أفكارها؛ فسألته وهي ما تزال تقف مكانها:

ـ ماذا تقصد؟

ابتسم ابتسامة خفيفة، ثم قال:

ـ الأولياء ورثة الأنبياء، وإن كانت المعجزات للأنبياء فالكرامات للأولياء، والأولياء متعارفون على بعضهم البعض بالمحبة الخالصة لوجه الله ليس لها حدود، لا زمان ولا مكان.

نظرت إليه في صمت وحيرة وهي لا تفهم شيئًا مما يقول، فأكمل الرجل قائلًا:

ـ وسيدنا الخضر من كبار أولياء الله الصالحين، وبعد أن شرب واغتسل من ماء الحياة منحه الله منحة خاصة وهي ألا يموت إلا إذا سأل هو الله ذلك..[1] (1)

عقدت (ليلى) حاجبيها في عدم فهم، فسألته وهي تقترب منه ببطء:

ـ كيف عرفت أنني كنت أتساءل بداخلي عن سيدنا الخضر؟

نظر إليها طويلًا، ثم قال:

ـ يقول الله تعالى، بسم الله الرحمن الرحيم **(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** {الأنعام:122}، ويقول سيدنا النبي عليه أفضل الصلاة والسلام في حديثه الشريف: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) أي أن هناك عبادًا يختصهم الله بنوره، والقلوب المنيرة تنجذب إلى بعضها البعض، وتعرف بعضها جيدًا.

---

[1] من كتاب قصص الأنبياء للإمام الثعلبي

شعرت بالهدوء والسكينة من حديثه، رغم أنها لم تفهم منه شيئًا، ولكن قلبها أدرك بشعور شبه يقيني أن مقابلتها بذلك الرجل لم تأتِ مصادفة؛ فاقتربت منه وسألته في أدب:

ـ هل من الممكن أن أجلس معك قليلًا، وأحكي لك شيئًا ما؟

أشار الشيخ (جبريل) إلى الأرض، قائلًا في ترحاب:

ـ بالطبع أنا خدامك، أنا هنا من أجلك.

ابتسمت له في امتنان دون أن تعلّق على جملته الأخيرة، ثم جلست بجواره على الأرض، وبدأت حديثها قائلة:

ـ منذ ما يقرب من شهرين حدث لي شيئًا غريبًا.

واسترسلت في حديثها دون توقف كأنها أخيرًا وجدت ضالتها، فقد كانت على يقين أن إجابة كل أسئلتها لدى هذا الشيخ.

كان الشيخ (جبريل) يستمع بإنصات شديد إلى (ليلى) التى استرسلت في حديثها بمنتهى السلاسة، حكت له كل شيء بدءًا من اليوم الذي عادت فيه إلى مصر مرورًا برحلتها إلى (دهب)، حكت له عن أحلامها وعن (نهلة) و (يحيى) الذي ظهر فجأة، وذلك التغير الكبير الذي حدث في علاقاتهم.

حكت له عن كل الشيوخ الذين زارتهم لتفهم منهم ما رأته، ولكن لم يفِيدها أحد، ثم عن زيارتها لإحدى أكبر معلمات اليوجا في مصر، وعن زيارتها لمسجد سيدنا الحسين ورؤيتها لذلك المجذوب هناك، ثم رؤيتها له البارحة مرة أخرى، وعن مفتاح منزلها بالمعادي الذي كانت تظن أنها نسيته، ثم اكتشفت أنه كان يقبع في أرض حقيبتها طوال ذلك الوقت.

حكت كل شيء حتى اللحظة التي تجلس فيها معه الآن، ثم ختمت حديثها قائلة:

ـ أشعر أنني في دوَّامة، لا أفهم شيئًا مما حدث ومما يحدث، قرأت كثيرًا في الأمر، ولكنني أيضًا لم أفهم شيئًا، أخبرتني معلمة اليوجا أن ما حدث لي يطلق عليه (تجربة الاقتراب من الموت)، وحينما سألتها لماذا حدث ذلك لي، أجابتني إجابة زادت من حيرتي.

نظر إليها الشيخ باهتمام، فأكملت قائلة:

ـ قالت لي هذا السؤال لن يستطيع سواكِ البحث عن إجابته؛ لأن المعنى الحقيقى لما حدث ليس في الإجابة كما تظنين، المعنى الحقيقي في رحلة البحث عنها.

ابتسم الشيخ (جبريل) وهو يومئ برأسه موافقًا، ثم قال:

ـ صحيح.

ـ ما الذي يعنيه ذلك؟ ما الذي رأيته وما تفسيره؟

ـ ما شاء الله، منحة عظيمة.

نظرت إليه (ليلى) في عدم فهم، فأكمل قائلًا:

ـ حينما توقف قلبك طافت روحك لترى ما عجزتِ عن رؤيته، وأنتِ على قيد الحياة، فلقد أعطاكِ الله قلبًا جديدًا ماديًّا ومعنويًّا.

ـ ومن هذا الشيخ الذي رأيته؟

ـ إنه سيدي طلحة صاحب هذا المقام الشريف.

ـ ولماذا جاء لي؟

ـ أولياء الله لا يأتون إلا لسببين؛ إما أن يكون عطف، أو استغاثة به، أو أن لكِ ميراث عنده.

ـ ميراث؟ كيف؟

ـ أي أن هناك صلة ما بينك وبينه حتى وإن لم تعرفيها بعد.

ـ ولماذا الآن بالتحديد؟

تنهَّد الشيخ (جبريل) بقوة، وقال وعيناه معلقتان بالمقام أمامه:

ـ لكل شيء موعد، ولكل باب وقت يُفتح فيه، قال الله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم (**حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**){يوسف:110} صدق الله العظيم، أي أنه في قمة اليأس يبعث الله الأمل وتتغير الأحوال، وفي شدة الظلام يأتي النور.

همَّت (ليلى) بأن تسأله سؤالًا آخر، ولكن أوقفها صوت أذان العصر، فصمتت وهي تنظر إلى الشيخ في رجاء، فابتسم بسماحة، وقال وهو يقف مستعدًا للرحيل:

ـ سأنتظرك بعد غد لنكمل حديثنا.

ثم ودعها بأدب ورحل في هدوء.

وفي المساء وبعد أن عادت (ليلى) من زيارة (نهلة) جلست بصحبة والدها في شرفة منزلهم يحتسيان الشاي، وهما يتحدثان عن مواضيع شتى بمتعة لم تختبرها من قبل، خاصة حينما كانا يسترجعان ذكريات المولد سويًا.

نظرت من الشرفة لتلك المجموعة من الرجال والنساء، والذين بدأوا في نصب خيمة كبيرة، ليقيموا بها طوال أسبوع المولد، فقد تعودت على ذلك طوال حياتها؛ تعودت على تلك الخيام التي كانت تنتشر في أزقّة حيهم ممتلئة بزائرين المولد الذين يأتون من كل محافظات الجمهورية، يقيمون طوال الإسبوع إقامة كاملة، لا يفعلون شيئًا سوى استضافة المساكين وإطعامهم أو إقامة حلقات الذِّكر.

وصلت إلى أنفها رائحة طهي الفول النابت، الأكلة الأشهر في مثل تلك المناسبات، فابتسمت وهي تتذكر كم كانت تتذمر سابقًا من أولئك القوم، ومن إقامتهم والإزعاج الذي كانوا يسببونه طوال اليوم، وأيضًا من رائحة طهيهم التي كانت دائمًا ما تراها مثيرة للغثيان، وهي تتساءل بتعجب ما الذي يجبرهم على ذلك؟ ما الذي يجبرهم على النوم والجلوس والأكل والشرب في الشارع على مرأى ومسمع من الجميع؟ لماذا يتركون منازلهم ويطوفون على الموالد، وما الذي يبغون الحصول عليه مقابل ذلك؟

ولكنها الآن أصبحت تراهم بعين أخرى، أو ربما بقلب آخر، فهكذا يفعل المُحب لا يحركه شيء سوى حبِّه.

كان والدها يحدثها كالمعتاد عن ذكرياته، وعن جدها وجدتها حينما تذكرت أمر الحجرة المغلقة؛ فاستأذنت والدها وقررت أن تفتح تلك الحجرة؛ لتبحث بها عن أيِّ شيء يعينها على فهم ما يدور حولها، وكانت على يقين أن إجابات لأسئلة كثيرة ترقد في سلام في تلك الحجرة.

أحضرت المفتاح وفتحت الحجرة، ثم خطت إلى الداخل بحرص كأنها تخشى أن تدهس إحدى تلك الذكريات التي تسكن كل شبر منها، فقد كانت تلك حجرة أمها وأبيها التي طالما جمعتهما بدفئها وحبها. كل شيء في مكانه.. الفراش وخزانة الملابس، حتى التلفاز لم يتحرك من فوق مائدته المخصصة. ابتسمت في حنين وهي تتذكر كم من أوقاتهم الجميلة وبراءتهم جُمعت في تلك الغرفة، ثم بدأت في فتح الأدراج والصناديق الكرتونية بحرص، والبحث عن شيء لم تعرف ما هو، ولكنها لم تجد شيئًا، فمعظم الموجود أشياء قديمة تعود إلى أيام أجدادها، رفضت عمتها الكبيرة التخلص منها، وصممت على الاحتفاظ بها؛ فوضعوها في تلك الحجرة وأغلقوها جيدًا، ولم تفتح تقريبًا منذ ذلك الحين،

وحينما لم يسفر بحثها عن شيء وقفت في منتصف الحجرة تنظر حولها في حيرة، حينما وقعت عيناها على ذلك الكومودينو القديم الذي يعود لجدتها، والذي كان خاصًا بوالدها، لا يقدر أحد على فتحه دون إذنه، فنظرت إليه وهي تضيق ما بين عينيها، وتفكر ربما ما تبحث عنه يوجد بالداخل.

أخرجها أبوها من أفكارها، وهو يسألها في استغراب:

ـ (ليلى)، ماذا تفعلين هنا؟

نظرت إليه للحظات دون إجابة، ثم سألته في جدية:

ـ بابا، هل ما زلت تحتفظ بمفتاح ذلك الكومودينو؟

ـ نعم، لماذا؟

ـ أين هو؟

ـ في سلسلة مفاتيحي.

ذهبت (ليلى) وسط استغراب أبيها، وعادت بعد ثوانٍ تجرُّ مقعدًا خشبيًا صغيرًا أجلست عليه والدها، وفي يدها الأخرى سلسلة مفاتيحه، ثم قامت بفتح الكومودينو، وبدأت في البحث بداخله، فسألها والدها:

ـ ما الذي تبحثين عنه؟ لا يوجد عندك سوى بعض الصور.

زفرت في ضيق وإحباط حينما اكتشفت صحة كلام أبيها، فلم يكن بالفعل هناك سوى الكثير من ألبومات الصور.

سألها والدها مرة أخرى:

ـ ما الذي تبحثين عنه؟

نظرت إليه في حيرة، وقالت:

ـ لا أعرف، ثم همت أن تعيد غلق الكومودينو بالمفتاح حينما أوقفها والدها، قائلًا:

ـ انتظري، اعطني بعض الصور من عندك.

ابتسمت له في حب، ثم أخرجت مجموعة من الألبومات وأعطتها لأبيها الذي حملها بلهفة وحرص كأب يحمل مولوده الأول، وبدأ في مشاهدة الصور في سعادة، بينما جلست هي على طرف الفراش تطالع في حب ملامحه التي كانت تنطق بالحنين مع كل صورة يشاهدها، ولأول مرة شعرت بالشفقة عليه من ذلك العجز الذي غيَّر ملامحه وهيئته، وجعل كل سعادته في مجموعة صور قديمة.

أعطاها أبوها إحدى الصور، وهو يقول لها:

ـ انظري، هذا أبوكِ في أول أيام المدرسة الابتدائية.

تناولت (ليلى) منه الصورة، وهي تنظر إليها وتضحك من شكل أبيها وهو صغير، والذي لم يختلف كثيرًا عنه وهو كبير، كأنه ولد رجلًا كبيرًا، ثم ناولها صورة أخرى، وهو يقول:

ـ وهذه عمتك (سناء)، وعمتك (حكمت) رحمة الله عليهما في خطبة عمتك (سناء).

ظل أبوها يستعيد ذكرياته في سعادة، ويشاهد معها الصور وهو يشرح لها كل صورة ومناسبتها، تمامًا كما كان يفعل معهم وهم صغار، ورويدًا رويدًا غرق كلاهما في بحر الذكريات، وتناست (ليلى) تمامًا السبب الأساسي لدخولها تلك الحجرة، وما كانت تبحث عنه.

ـ هذه جدتك، انظري كم كانت جميلة؟ أنتِ أكثر أبناء العائلة شبهًا بها.

قالها أبوها في سعادة وهو يناولها الصورة، فأمسكت بالصورة وأخذت تتطلع إليها بابتسامة واسعة، ثم قالت لأبيها بفضول:

ـ أين صور جدي، أنا لم أرَ له أيَّ صورة حتى الآن.

أجابها وهو يبحث بين الصور:

ـ جدك لم يكن يحب التصوير؛ لذلك لا أملك له صورًا كثيرة.

ثم أخرج إحدى الصور، قائلًا في انتصار:

ـ هه.. وجدت واحدة، هذا جدك.

تناولت منه الصورة في لهفة، وأخذت تنظر إليها في سعادة، ما لبثت أن تحولت إلى ذهول وهي تتطلع إلى تلك الصورة واضحة المعالم، بالرغم من تلك التشققات التي انتشرت بها، والسنوات التي مرت عليها، أغمضت عينيها وفتحتهما عدة مرات وهي تقرِّب الصورة من وجهها، تدقق النظر في ذلك الرجل الستيني ذي البشرة الخمرية واللحية البيضاء والملامح الطيبة، وقد تأكدت أن الرجل الذي جاءها في حلمها الأول في الطائرة وهي عائدة إلى مصر، وقال لها: (استمري، أنتِ في الاتجاه الصحيح)، والذي رأته في دهب، وقال لها: (ركزي في الإشارة) هو الذي يتطلع إليها الآن بهاتين العينين الطيبتين من تلك الصورة القديمة، لقد كان هو... جدها.



(إنه طريقك وحدك، قد يرافقك فيه أحدهم لفترة من الوقت، ولكن لن يكمله أحد غيرُك)

مولانا جلال الدين الرومي..

الليلة الرابعة

أمطار غزيرة وظلام دامس، لا يقطعه سوى ذلك البرق الذي يلمع لثوانٍ خاطفة، ثم يعود الظلام مرة أخرى. كانت (ليلى) تعدو بكل قوتها في الشوارع الجانبية المحيطة بالحي الذي تسكن فيه وهي تنظر إلى قدمها في استغراب، فقد كانت بأفضل حالٍ ويدها اليسرى أيضًا كانت تستطيع تحريكها بشكل أفضل، وقفت قليلًا تلتقط أنفاسها، ولكنها حينما نظرت خلفها واصلت العدو مرة أخرى، حتى وجدت نفسها أمام باب مقام سيدي طلحة الموجود على الشارع الرئيسي، والذي كان مفتوحًا على مصراعيه.

نظرت إلى الباب في استغراب؛ فتلك كانت المرة الأولى التي تكتشف فيها وجوده، ولكنها حينما نظرت خلفها أسرعت بالدخول إلى المقام والاحتماء به، وفي الداخل وقفت أمام المقام تقطر ماءً من كل جانب، بيد أنها لم تكن خائفة، بل على العكس ما إن خطَّت إلى داخل المقام حتى شعرت براحة غريبة، وحينما نظرت خلفها وجدت الباب مغلقًا تمامًا كأنه لم يكن مفتوحًا.

دارت حول المقام الذي كان مضيئًا بقوة على عكس ذلك الظلام الذي تسبح فيه ساحته الخارجية، فابتسمت في سلام وأكملت دورانها حتى وصلت إلى المكان الذي يجلس به الشيخ (جبريل)، لتجده كعادته بنفس جلسته وبصحبته رجل عجوز يرتدي جلبابًا أبيض، ووشاحًا أبيض يلف به رأسه فلم تظهر ملامحه.

اقتربت منهما ببطء، ومع كل خطوة تخطوها تُقبل عليها نسمات من هواء دافئ محملة برائحة عطرة، وحينما أصبحت بجوارهما وجدت يد الرجل العجوز تشير إلى مكان بجواره، وهو يقول:

ـ اجلسي يا (ليلى).

في البداية استغربت أنه يعرف اسمها، ولكن ما إن جلست ونظرت إليه حتى اتسعت ابتسامتها وانتابتها فرحة عظيمة، وهي تهتف في لهفة:

ـ جدي.

ربت جدها (عبد الرحمن) على كتفها بيده التي كانت ممسكة بتلك المِسبحة الخضراء، والتي تشبه تلك التي أعطاها لها المجذوب، وقال بصوت هادئ رخيم ملأها بالاطمئنان:

ـ أنتِ الآن في أمان.

ثم وقف وقال موجهًا حديثه إلى الشيخ (جبريل):

ـ هي الآن في الطريق.

ثم، وقبل أن يرحل، أسقط بين قدميها مِسبحته الخضراء.

***

فتحت (ليلى) عينيها في بطء كأنها كانت ترفض الاستيقاظ من تلك الرؤيا الجميلة، بينما كانت يدها اليسرى أسفل وسادتها ممسكة بمِسبحتها الخضراء، والتي لم تفارقها منذ ذلك اليوم الذي أخذتها فيه من المجذوب.

نظرت حولها لحظات كأنها تستوعب أين هي، وحينما أدركت أنها نائمة في حجرتها سحبت يدها وهي ما زالت ممسكة بالمِسبحة واعتدلت في فراشها حيث ظلت ساكنة للحظات، وعيناها مثبتتان على المِسبحة في سلام. أخذت نفسًا عميقًا حينما وصلت إلى أنفها ذات الرائحة العطرة التي اشتمتها في الحلم؛ فقبَّلت المِسبحة وأعادتها مكانها، وقامت مسرعة في لهفة تريد أن تذهب إلى (أم هناء) وتخبرها بكل ما حدث، بالتأكيد هي مستيقظة الآن. ذهبت في نشاط وسعادة إلى الحمام، وقد قررت أن تغتسل وتتوضأ لتصلي صلاة الصبح، ثم

تذهب مباشرة إلى (أم هناء) إلا أنها توقفت فجأة في منتصف الطريق، ونظرت إلى قدمها اليسرى في دهشة.
كانت قدمها بحال جيدة جدًا، ولأول مرة منذ خرجت من المستشفى تسير بمفردها دون الحاجة لعصاها؛ فارتجفت أطرافها وهي تحرك قدمها اليسرى يمينًا ويسارًا لتتأكد أنها لا تتوهم ذلك، لتجدها بالفعل تتحرك بطريقة طبيعية دون ألم. ظلت تنظر إلى قدمها غير مصدقة، وهي تتذكر رؤيتها الأخيرة، وهنا نظرت إلى السقف، وقالت برجاء:
ـ ياااارب، يااارب.
ثم استأنفت طريقها إلى الحمام، فاغتسلت وتوضأت لتقف بين يدي الله وتبدأ الصلاة.
(الله أكبر).
أصبحت تلك هي كلمة سر انهمار دموعها التي لم تكن تعرف هل هي دموع رهبة مما حدث لها، أم شُكر لله على شفاء قدمها؛ كل ما كانت تعرفه أن البكاء في تلك الأيام هو أكثر ما يريح قلبها وينقي روحها.
عادت وتذكرت حلمها فشعرت بتجدد إحساس السلام بداخلها، ثم وفي سجدتها الأخيرة أخذت تدعو لجدها بحرارة وحب، وما إن انتهت من صلاتها حتى تناهى إلى مسامعها صراخ شديد يأتي من الشارع؛ فأسرعت إلى الشرفة تستطلع الأمر، لتجد (أمل) تقف في شرفة منزلهم وهي تصرخ صراخاً هستيرياً وتبكي بحرقة. وهنا أغمضت عينيها في ألم، وعادت الدموع تنساب من عينيها مرة أخرى.

***

تجمعت نساء الحي جميعًا في منزل (أم هناء) بعد أن هبط خبر وفاتها المفاجئ على رؤوسهم كالصاعقة، أما (ليلى) فقد اتخذت ركنًا في أقصى صالة المنزل تقرأ في المصحف الشريف، وهي تبكي في صمت تلك العجوز الطيبة التي ارتبطت بها بقوة رغم ذلك الوقت القصير جدًا الذي قضته معها.

العويل والصراخ يملأ المكان إلا أن ذلك لم يعد يزعجها، لم تتأفف أو تشعر بالضيق حتى أنها لم تترك المكان حينما جاءت مُغسِّلة الموتى، ولم تشعر بذلك الخوف الذي كان يصاحبها دائمًا في مثل تلك المواقف. ارتجَّ جسدها من قوة كتمان بكائها وهي تفكر أن كل ما كانت تحتاجه ساعة واحدة فقط لتودعها، لتخبرها بما عرفت، وتُبشرها بذلك الحلم الجميل الذي رأته، ساعة واحدة فقط بالتأكيد كانت ستفرق معها كثيرًا.

الآن، بدأت تدرك كل ما رأته حينما فاضت روحها من قبل، فقد رحلت أم (نهلة)، وها هي (أم هناء) تلحقها لتجتمع بـ(طلحة) نور عينيها. الآن فهمت لماذا رأت (أم هناء) نفسها في ذلك الحلم، وقد عاد إليها بصرها، والآن فهمت أيضًا لماذا رأتها في رؤياها سعيدة تحتضن (طلحة) في شوق وفرحة؛ فذلك ما تمنته منذ فقدت ابنها وكانت تدعو الله به وتطلبه بإلحاح.

تألمت حينما سمعت صراخ (أمل)، وهي تتساءل بداخلها لماذا يحاوطها الموت منذ عادت إلى هنا؟ حينما انفتح باب إحدى الغرف وخرجت منها مُغسِّلة الموتى، وهي تقول بصوت قوي ليعلوعلى صوت نحيب النساء:

ـ لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله.

ردد الجميع وراءها الشهادتين في تأثر، ثم قالت المُغسِّلة:

ـ الأمانة جاهزة، اللهم أنر قبرها مثلما أنرت وجهها يا أرحم الراحمين.

وهنا تعالت أصوات الصراخ والنحيب مرة أخرى.

نفس المشهد يتكرر في أقل من ثلاثة أيام، ولكن (ليلى) التي تجلس الآن مختلفة تمامًا، اختلاف لا تفهمه جعلها تطلب الدخول لتوديع (أم هناء) للمرة الأخيرة.

وفي الداخل وقفت (ليلى) وقد تيبس جسدها وهي تنظر إلى الجثمان الراقد أمامها في صمت بلا حياة، ملفوف بذلك الكفن الأبيض لا يظهر منه شيء سوى الوجه.

كانت تلك المرة الأولى التي تجتمع بها مع جسد ميت في مكان واحد، فارتجفت أطرافها وفاضت دموعها، ولكنها لم تفكر في الخروج، بل على العكس بدأت تقترب بخطوات مرتعشة، وقلب متألم وهي لا تعرف من أين جاءت بتلك الجرأة؛ فتلك التي تقف تتطلع إلى ذلك الجثمان لا تمت بصلة لـ(ليلى) التي ترتعش خوفًا إذا مرت بجوارها قطة ضعيفة.

كان الموقف قويًا مهيبًا اختلطت به مشاعر كثيرة متناقضة حينما فكرت (ليلى) كيف تجتمع الحياة والموت هكذا ويكونان بذلك القرب، ولكن ألم يكن ذلك حالها دائمًا؟ ألم تحيا نصف سنوات عمرها بجسد على قيد الحياة وقلب ميت؟ ألم تفعل كل شيء يدل على الحياة بروح ميتة؟

اقتربت من الجثمان حتى أصبحت تقف عند رأسه، فداعبت أنفها تلك الرائحة العطرة، نفس الرائحة التي اشتمتها في الحلم مع جدها، فابتسمت في حزن وهي تتطلع إلى وجه (أم هناء) بابتسامته الواسعة الذي اختفت تجاعيده تمامًا، وحلَّ محلها بياض ونور ساطع كأنها لم تفارق الحياة قط، كأنها نائمة في هدوء وترى حلمًا جميلًا.

خالجها ذلك الشعور بقوة، الشعور بوجود جدها في المكان فنظرت حولها كأنها تبحث عنه، ثم عادت عيناها تفيض بدموع غزيرة، وتتساءل كيف تشعر بذلك

الهدوء وتلك الراحة العجيبة بجوار جسد ميت؟ هي التي كانت ترتعب من فكرة الموت رغم أنها كانت تفكر بها كثيرًا؟

مرت بإبهامها برفق على جبين (أم هناء)، وقد اتسعت ابتسامتها من بين دموعها وهي تفكر في سعادة أنه الآن تستطيع تلك العجوز الطيبة أن ترتاح، وتنعم بصحبة ابنها نور عينيها كما كانت تدعوه دائمًا.

الآن عاد إليها بصرها، وبالتأكيد هي في مكان أجمل بكثير بصحبة من تحب.

مالت (ليلى) عليها، وقبَّلت جبينها في حب وهدوء، وهي تقول لها:

ـ في أمان الله يا (أم هناء)، السلام أمانه لجدي عبد الرحمن.

ثم اتجهت في هدوء إلى الخارج، ولكنها قبل أن تخرج من الغرفة نظرت حولها مجددًا، مودعة جدها بعينيها التي لا تراه وقلبها الذي على يقين من وجوده.

خرج كل سكان المنطقة رجالًا ونساءً لتوديع تلك السيدة الطيبة إلى مثواها الأخير، وبعد صلاة العصر كان صوان العزاء قد تم نصبه، وارتفع صوت القرآن جليًّا من مكبرات الصوت؛ فبدأ الناس يتوافدون لتقديم واجب العزاء.

استأذنت (ليلى) والدها لفتح شقة الدور الأرضي في منزلهم، وبدأت في مساعدة نساء الحي في طهي الطعام كعادة طقوس العزاء في تلك المناطق الشعبية، ثم خصصت جزءًا من الشقة لاستقبال المعزيين من النساء، فقد كان منزل (أم هناء) صغيرًا لا يتسع لكل تلك الأعداد التي ظلت تتوافد على مدار اليوم.

كانت تقف أمام موقد الغاز تقوم بمتابعة الطعام وهي شاردة حزينة، لا تفكر في شيء سوى (أم هناء) التي ترقد الآن وحيدة في ذلك القبر، حينما انتبهت على صوت (أمل) وهي تحدثها بحزن، بينما كانت تربت على كتفها:

ـ الله يبارك فيكِ يا (ليلى)، تعبتِ كثيرًا اليوم.

ثم أكملت، وقد غلبتها نوبة بكاء جديدة:

ـ أمي كانت تحبك جدًا، وكانت تدعو لكِ كل يوم وقت الفجر.

احتضنتها (ليلى) في حزن، فأكملت (أمل):

ـ لقد كانت تحدث جدك عبد الرحمن طوال الليل، وتخبره أنكِ الآن بأمان.

نظرت إليها (ليلى) في ذهول، وهي تسألها بلهفة:

ـ ماذا قالت أيضًا؟

ـ قالت إن (طلحة) يُعد المكان لاستقبالها، وطلبت من جدك ألا يتركها حتى تجتمع بهما.

أغمضت (ليلى) عينيها في ألم، ثم عادت وربتت على كتف (أمل) في مواساة، وهي تقول لها:

ـ الله يرحمهم جميعًا ويجمعنا بهم على خير، اذهبي أنتِ لمقابلة الناس، وأنا سأتكفل بكل شيء.

ذهبت (أمل)، بينما عادت (ليلى) لمتابعة الطعام مع بقية النساء، حينما دخلت عليهم ابنة (أمل) الصغيرة وهي تعدو، ثم قالت لـ(ليلى) بأنفاس لاهثة:

ـ أبلة (ليلى)، هناك رجل يسأل عنكِ.

سألتها (ليلى) باستغراب:

ـ مَنْ هو؟

ـ لا أعرف، ولكنه ينتظرك عند ناصية الشارع.

قالتها الصغيرة ببراءة، ثم تركت (ليلى) وأخذت تعدو مرة أخرى إلى الخارج، فتبعتها (ليلى) في استغراب وهي تفكر في ذلك الرجل الذي يسأل عنها؛ فهي لا تعرف أحداً هنا. هل يكون الشيخ (جبريل)؟ هو الوحيد الذي تعرفه ويعرفها هنا؛ ولكنها ما إن اقتربت من ناصية الشارع حتى خفق قلبها بقوة،

فقد كان (يحيى) واقفًا يدخن سيجارته في ملل، وما إن رآها حتى ألقى بسيجارته وابتسم وهو يقترب منها. أشارت إليه بيدها أن يظل مكانه، وحينما وصلت إليه تنحَّت به جانبًا كيلا يكونا على مرأى من جميع مَنْ بالشارع.

نظرت له في لهفة، فأمسك بيدها يصافحها، وهو يقول بعتاب:

ـ من الواضح أنكِ بخير.

ابتسمت له في حزن، وقالت:

ـ كيف حالك يا (يحيى)؟

ـ أفتقدك.

قالها بحنان بالرغم من غضبه الشديد منها، فاحمرّت وجنتاها وهي تسأله مغيرة الحديث:

ـ كيف أتيت إلى هنا؟

ـ سألت على اسم المسجد، لم أتوقع أن يكون بهذه الشهرة.

كان جميع المارين ينظرون إليهما باستغراب، فقاطنو الأماكن الشعبية يستطيعون تمييز أيِّ غريب بمنتهى السهولة؛ لذلك سحبت (ليلى) يدها من يده، وسألته بتوتر:

ـ ولماذا أتيت؟

شعر (يحيى) بالضيق من سؤالها، فقالت له في أسف:

ـ آسفة يا (يحيى)، لم أقصد ما فهمته.. كل ما في الأمر أني تفاجأت بوجودك، ثم إن اليوم صعب جدًا فقد توفيت جارتنا.

أجابها وما يزال يبدو عليه الضيق:

ـ لا عليك، أردت فقط الاطمئنان عليكِ، فأنا لا أعرف عنكِ شيئًا منذ أن جئتِ إلى هنا، لا تجيبن على رسائلي أو اتصالاتي، هل أنتِ بخير؟

أجابته في حيرة:

ـ لا أعرف، فعلًا لا أعرف.

ـ أريد أن أتحدث معكِ كثيرًا.

ـ وأنا أيضًا، ولكن لن أستطيع ترك العزاء الآن، سأقابلك بعد صلاة المغرب.

رحل (يحيى) وعادت هي إلى المنزل بذلك الخليط الغريب من المشاعر الذي أحدثته رؤيته؛ فهي لا تصدق أنه جاء إلى هنا كل تلك المسافة من أجلها، بل لم تصدق أنه افتقدها إلى تلك الدرجة.

ذلك الرجل ليس (يحيى) الذي كانت تتمنى فيما سبق أن يرد فقط على اتصالاتها الهاتفية.

لم تكن ترد على اتصالاته أو رسائله عن قصد، فقد شعرت أنها في تلك المرحلة يجب أن تبتعد عن أيِّ ضغوطات، عن أيِّ شيء قد يربك مشاعرها أو يلهيها، أرادت أن تتعامل مع كل شيء بحيادية تامة، وأن تنحِّي (ليلى) القديمة جانبًا لترى حياتها من الخارج، فقد اكتشفت مؤخرًا أن هناك معنى أكبر لتلك الحياة غير الحب والزواج والعمل، وكل تلك الأشياء التي يظل الإنسان يحارب من أجلها طوال حياته.

هناك مكان جديد في قلبها أصبح فارغًا يحتاج إلى نوعٍ آخر من الحب، إلى معنى جديد يصل بها إلى السلام والهدوء، كل شيء حولها أصبح يحمل أكثر من معنى، ويحتمل أكثر من تفسير؛ فكل السلبية التي كانت تتعامل بها في حياتها كان لها معنى آخر.

خوفها من غضب أمها أسمته برًّا بها..

فشلها في الكثيرمن الأشياء، سوء حظ..

هروبها من حياتها وزواجها من (شريف)، بداية حياة جديدة.

اختيارها الدائم للاستسلام لما يحدث لها، قدر..

ابتعادها عن الجميع، وحدة..

إدمانها للألم الذي كان يسببه لها (يحيى)، حب.

وهنا تساءلت بخوف هل تحبه بالفعل؟ بل هل كانت تحبه طوال تلك السنوات؟ أم إنها طبيعة النفس البشرية التي تزهد الأشياء التي طالما تمنتها حينما تأتيها.

لا تستطيع أن تنكر أنه أصبح رجلًا آخر غير الذي عرفته، منذ ذلك اليوم في المستشفى، وتحديدًا بعد أن علم بطلاقها، وطوال فترة نقاهتها في المنزل كان يتحدث إليها ليلًا نهارًا، وحينما بدأت في الخروج لتلقي جلسات العلاج الطبيعي أصرَّ أن يكون معها في كل جلسة، يأخذها من المنزل ويذهب بها إلى المركز، وينتظر حتى تنتهي جلستها، ثم يصطحبها بعد ذلك لتجربة طعام أو مشروب مختلف في أماكن جديدة.

كأنه يريد تحويل كل لحظة بينهما إلى ذكرى، كأنه يعوضها ويعوض نفسه عن كل تلك السنوات التي مضت في عناده وضعفها، وكأنه حصل هو الآخر على حياة جديدة.

حتى هي، ازدهرت معه بشكل ملحوظ؛ فوجود هذا الرجل سكَّن بداخلها الكثير من الألم، وبقدر استمتاعها بصحبته، بقدر خوفها مما هو قادم معه؛ فقد عوّدها (يحيى) دائمًا على النهايات الحزينة؛ ولذلك أيضًا قررت أن تكون صريحة معه في آخر لقاء لهما قبل أن تسافر إلى كفر الشيخ، رغم أنها كانت تشعر بصعوبة وكبرياء شديدين في نطق كلماتها، ولكنها ابتلعت لعابها، وقالت:

ـ إن كنت تنوي الابتعاد مرة أخرى، فليكن الآن أفضل من لاحق، فأنا لن أتحمل ألماً جديداً.

نظر إليها حينها بحزن، وهمَّ أن يقول شيئًا، ولكنها أوقفته بإشارة من يدها، ثم أكملت قائلة:

ـ أعلم أن وجودك الآن ليس إلزامًا لك بالبقاء، ولكنني على أعتاب حياة جديدة ليس لها أي معالم، وأنت الوحيد الذي أشعر معه بالأمان، أنت الآن كل جيشي يا (يحيى).

زفرت في حنق وهي تتذكر كلماتها له، بينما كانت تستلقي على فراشها بعد أن عادت من مقابلته، فقد تركت الجميع بالأسفل، وصعدت إلى غرفتها طالبة بعضاً من الراحة بعد ذلك اليوم الثقيل على روحها وقلبها.

أمسكت رأسها في ألم وضيق من ذلك الصداع الذي كان يطرق رأسها بعنف، ومن كل تلك الذكريات والأفكار التي تعصف بذهنها، فآخر ما تريده الآن هي تلك الفوضى التي بدأت تجتاحها بعد رؤيته، أو ربما آخر ما كانت تخشاه أن تكتشف أنها لم تكن تحبه بذلك القدر الذي كانت تعتقده.

أغمضت عينيها في محاولة منها لتنال قسطًا من الراحة قبل موعد مقابلته، أو بمعنى أدق قبل موعد مواجهته.

***

ظل (يحيى) يقود سيارته في شوارع مدينة كفرالشيخ بعض الوقت قبل أن يستقر في ذلك المطعم منتظرًا (ليلى)، حيث جلس يتطلع في إعجاب إلى تفاصيل ذلك المطعم الراقي، فلم يكن يظن أن تلك المحافظة التي اشتهرت بالزراعة والأسماك والحياة الريفية تحمل مدينتها كل ذلك القدر من التَّمدُن، وأنها وصلت إلى ذلك المستوى الراقي في مبانيها ومطاعمها.

اختار تلك المائدة التي تطل على شارع رئيسي كبير هادئ نوعًا ما، مليء بالمساحات الخضراء والأشجار المهذبة جيدًا، وهو يحاول أن يُلهي تفكيره

بالنظر إلى تفاصيل ذلك الشارع، ثم ما لبث إن زفر في ضيق وهو يشعل سيجارة، ويفكر في (ليلى) وطريقة مقابلتها له.

هناك شيء ما قد تغير بها، شيء جديد طرأ عليها، وظهر جليًّا في نظرات عينيها التي أخبرته أنها أصبحت أقوى، وكأنها نضجت فجأة في أقل من شهرين، وربما ذلك ما أقلقه.

هو يعرف أن ما مرت به مؤخرًا ليس بالقليل، وأنه بالتأكيد قد غيَّر بها الكثير، ولكن هل سيغير ذلك من حبها له؟ هو على يقين من حبها له، يعرف ذلك منذ لقائهما الأول، فتلك الفتاة عيناها كالماء لا تخفيان شيئًا.

ولكن هل اكتشفت أنها لم تعد تحتاج إليه؟ وأنها بعد أن استطاعت تجاوز كل تلك السنوات بمفردها، ستتجاوزه هو أيضًا وتبتعد عنه؟ استنكر مجرد التفكير في ذلك الأمر، ثم نظر إلى نفسه متعجبًا إلى ما وصل إليه معها، ماذا فعلت به تلك العائدة من الموت؟ كأنها جاءت إليه بحياة جديدة هو الآخر؛ ليصبح في تلك الفترة القصيرة رجلًا جديدًا، فلم يعد يجيد الابتعاد كما تعود، وأصبح الخوف من الوحدة أكبر لديه من الخوف من التعلق.

لقد اختبر في عودة (ليلى) شعورًا جديدًا لم يشعر به قط من قبل، شعور الاطمئنان..

هو على يقين أن الله قد أعطاه هو الآخر فرصة جديدة لتعويض كل ما فات، إن الله أرسلها إليه بعد كل تلك السنوات لتعيد مَلء ذلك الخواء بداخله؛ لتعيد إليه الحياة مرة أخرى، ولكن كل ما كان يخشاه أن يخذلها مرة أخرى.

كل ما كان يخشاه أن يفيق شبح الفقد بداخله ويبتلعه من جديد، فيُبعدها ويؤذيها مرة أخرى، ولكن ماذا عنه؟ هل سيستطيع تجاوزها؟ لقد وجد الأمان أخيرًا في وجودها، لقد أصبح مطمئنًا أخيرًا بعد كل تلك السنوات من الخوف

والوحدة والمُكابرة، وأنه لا يريد سوى ذلك السلام والأمان اللذيْنِ لا يتواجدان إلا في عينيها؟ فهل ستأخذ كل ذلك وترحل؟
هل ستغلق بابها الآن؟ وهو الذي طالما كان مفتوحًا يخرج متى يشاء، ويعود وقتما يريد، وكل ذلك دون وعد واحد بالبقاء، أو خبر بالرحيل، أو كلمة تعطيها بعض الأمل، فزاد ذلك من نرجسيته وأنانيته؛ ولكنه الآن، وبعد أن تبدلت الأدوار، شعر بما فعله بها كل تلك السنوات، شعر كيف يجعل الاحتياج الإنسان ضعيفًا؛ فهل سترحم (ليلى) ضعفه؟
سحق سيجارته في المطفأة في ضيق من نفسه ومن أفكاره، وهو يفكر أنه يجب أن يُهيء قلبه لرحيلها، فربما آن الأوان أن تنقلب عليه قسوته وأنانيته؛ ليدرك كم من الدمار أحدثه في قلبها هي وغيرها من النساء اللاتي عرفهن، فبالتأكيد هو لا يتوقع نهاية سعيدة بعد كل ذلك، ولكنه قرر أنه لن يتخلى عنها بسهولة.
لن يبتعد إن طلبت منه ذلك، فبالتأكيد لم يجمعهما الله مرة أخرى ليفرق بينهما، سينتظرها ويحاول معها مرارًا ومرارًا كما فعلت هي من قبل معه، لأنها تستحق كل ذلك؛ إلا أنه عقد حاجبيه في قلق وهو يفكر أن الله ربما لم يجمعهما مرة أخرى إلا ليعاقبه بها، وأنه لم يجعله يتعلق بها مرة أخرى بتلك القوة في تلك الفترة القصيرة إلا ليذيقه ألم الفراق وليعطيه درس حياته.
زفر في ضيق من كل تلك الأفكار والتساؤلات التي أخذت تعبث بعقله، ثم لم يلبث أن نسي كل شيء، وابتسم في حب وحنين حينما وقعت عيناه عليها وهي تقترب منه بملابسها السوداء التي زادتها جمالًا ووقارًا.
ابتسمت (ليلى) في خجل وهي تجلس أمامه من تلك الطريقة التي كان يتطلع إليها بها، بينما ظل هو يتطلع إلى وجهها الهادئ وملامحها الرقيقة وعينيها الواسعتين اللتين استقرت بهما حياته.

بدأ الحوار بكلمات تقليدية يشوبه بعض التوتر بسبب تلك الأفكار التي تعصف برأس كلٍ منهما، ثم أصبح هادئًا مسترسلًا في راحة. اعتذرت له مجددًا عن طريقة مقابلتها له، ثم أخذهما الحوار وحكت له كل شيء منذ عادت إلى كفر الشيخ. كل شيء بالتفصيل، فلم تكن تثق في أحد سواه، وهي على يقين بأنه هو الوحيد الذي سيصدقها ويفهمها.

ظل (يحيى) يستمع إليها بتركيز لا يخلو من الدهشة، بينما كان ينظر إلى عينيها الحزينتين، وهو يفكر أنه حتى حزن عينيها قد تغير، لم يعد حزنًا كسيرًا بسبب ضعف صاحبته، بل أصبح حزنًا ناضجًا يدل على أن صاحبته قد فهمت الكثير، ومرت بالأكثر فتغيرت نظرتها لكل شيء.

انهت حديثها بتنهيدة حارة تدل على حيرتها، فقال مازحًا في محاولة منه لتخفيف حدة توترها:

ـ مدد يا شيخة (ليلى).

ابتسمت وهي ترتشف رشفة صغيرة من فنجان قهوتها، وتسأله:

ـ ما رأيك فيما سمعت؟

ـ أرى أن الأمور قد بدأت تتضح كثيرًا أمامك، وأنكِ بدأتِ تفهمين ما يحدث بعض الشيء.

أومأت (ليلى) برأسها موافقة على ما يقوله، ثم قالت:

ـ بالفعل، لقد اتضحت أمامي الكثير من الأمور، وبدأت أكتشف بداخلي أشياء لم أكن أتوقعها.

سألها (يحيى) مباشرة بطريقة مفاجأة:

ـ وما الذي اكتشفتِه بشأني؟

تفاجأت من سؤاله، فنظرت إليه في حيرة دون إجابة، فأكمل وهو يشعل سيجارة جديدة:

ـ هل اكتشفتِ أنكِ لم تعودي تحبيني؟

أشاحت بعينيها بعيدًا عن عينيه، وقالت وهي تنظر إلى الشارع:

ـ أنا لم أخبرك قط أنني أحبك.

ابتسم من طريقتها المراوغة، وهو يقول:

ـ ولكنكِ أخبرتيني أنني أصبحت الآن كل جيشك.

نظرت إليه في غضب لم تستطع أن تخفيه، ثم قالت بحدة:

ـ أنت أيضًا أخبرتني بالكثيرمن الأشياء، شاركتني في أحلامي وقلت لي إنك ستظل موجودًا، قطعت لي وعودًا ربما لم تكن بطريقة مباشرة، ولكنها كانت وعودًا، ولكنك أبدًا لم تفِ بأبسطها وهو البقاء.

ثم أكملت بألم حاولت أن تخفيه:

ـ لقد مرت عشر سنوات يا (يحيى)، عشرسنوات مرت بدونك بكل أحداثهما التي واجهتها بمفردي وأنا لا أتوقف عن سؤال واحد، ماذا لو كنت معي؟ هل تتوقع مني أن أعود بتلك السهولة كأن شيئا لم يكن؟

أنهت سؤالها بصوت مختنق، وأغمضت عينيها في ألم، ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عنه مرة أخرى، وهي تحاول جاهدة أن تمنع تلك الدموع التي تجمعت في عينيها من النزول، فتطلع إليها في ندم من ذلك الألم الذي رافقها طوال تلك السنوات بسببه، وكم تمنى أن يحتضنها بقوة لتبقى بين ذراعيه، عسى أن يستطيع أن يمحو ذلك الألم؛ لذلك قال في حزن:

ـ نعم، عشر سنوات، مرَّ فيهن كلانا بالكثير من الأحداث، تغيرت الكثير من الأمور، أنا أيضًا كنت وحيدًا يا (ليلى).

فأجابته دون أن تنظر إليه:
ـ لقد كان اختيارك.
ثم نظرت إليه، وأكملت بعصبية:
ـ حتى الآن، لم تكن العودة قرارك، لو لم نتقابل صدفة في دهب لكان كلٌّ منا الآن في طريق مختلف يحيا حياته الخاصة.
سألها باستغراب:
ـ هل بعد كل ما مررتِ به، ما زلتِ تصدقين بوجود الصدف؟
لم تستطع الرد عليه حينما أصابت كلماته موطن الحقيقة في قلبها، فنظرت إليه وسألته في حيرة:
ـ إذًا لماذا الآن؟ ما الذي تغير؟
قال بعد أن أشعل سيجارة جديدة:
ـ لستِ الوحيدة التي يرسل الله إليها إشارات.
عقدت حاجبيها في عدم فهم، ونظرت إليه نظرة متسائلة، فأكمل وهو ينظر إلى عينيها مباشرة:
ـ لقد كان انهيارك وإجراءك لتلك العملية الجراحية أكبر إشارة لي أنني يجب أن أحافظ عليكِ، وأنني إذا فقدتك تلك المرة لن أستطيع استعادتك أبدًا.
لانت ملامحها ونظرت إليه في حب، فأكمل قائلًا:
ـ كنت أجلس في حديقة المستشفى وحيدًا يا (ليلى)، لا أحد يعلم بوجودي، فلم يكن لي الحق في التواجد من الأساس، لم يكن لي الحق في زيارتك والجلوس بجوارك أو الاطمئنان عليكِ، كان ذلك من حق رجل آخر.
قالها بحزن وغيرة شديدين، ثم أكمل قائلًا:

ـ وحتى الآن ليس لدي الحق في أكون إلى جوارك، أو أن أصاحبك في أهم أيام حياتك.

استقرت كلماته في قلبها، وبدون تفكيرأمسكت بإحدى يديه، وهي تقول في حب:

ـ صدقني يا (يحيى) الأمر لا يتعلق بك، أنا الآن في مفترق طرق لا مجال للعودة إلى ما كنت عليه، ولا أعرف إلى أين سينتهي بي الطريق، إنها رحلتي الخاصة، وتلك هي نفسي الحقيقية التي تنتظرني أن أجدها لأعود وأبدأ من جديد.

أومأ برأسه وهو يبتسم علامة أنه يفهمها جيدًا، ثم سألها بقلق داخلي حاول ألا يظهره:

ـ أما زلتُ كل جيشك؟

اتسعت ابتسامتها وهي تشد على يده، وتقول بصدق دون خجل:

ـ بل أنت كل ما أملك.

زفر في راحة، ثم تنحنح قبل أن يقول:

ـ هناك شيء آخر لم أخبرك به.

نظرت له في تساؤل، فأكمل قائلًا وهو يحتضن كفيها، وينظر إلى عينيها مباشرة:

ـ أُحبك.

***

(ما تبحث عنه، يبحث عنك)

مولانا جلال الدين الرومي..

الليلة الخامسة

وقفت (ليلى) في ذلك الممر الواسع نسبيًّا، والذي يقسم منزلهم إلى نصفين، وهي تنظر إلى حوائطه جيدًا، ثم ذهبت إلى المطبخ وعادت بذلك السلم الخشبي القديم، فأسندته إلى إحدى الحوائط، وبدأت في تركيب أرجوحتهم القديمة بعد أن وجدتها ملقاة أسفل الفراش في غرفة والديها.

كانت منهمكة فيما تفعل حينما خرج إليها أبوها وهو يسألها في استغراب:

ـ ماذا تفعلين؟

نظرت إليه (ليلى) من أعلى السُلم الخشبي، وهي تجيبه ضاحكة:

ـ هل تتذكر تلك الأرجوحة؟

فأجابها أبوها ضاحكًا:

ـ بالطبع، وأتذكر أكثر العراك الذي لم يكن يتوقف بينك وبين أخواتك على من يركبها أولًا.

ضحكت بصوت عالٍ وهي تهبط من فوق السُلم الخشبي وتنقله إلى جانب آخر، وتقول:

ـ وكنتَ دائمًا تجعلني أنا أول من يلعب بها.

جلس والدها على الأريكة، وقال:

ـ بالطبع فأنتِ آخر العنقود، وكان شبهك الكبير لجدتك يجعلك تكسبين كل المعارك في صغرك ضد أخواتك.

كادت تجيبه (ليلى) بأن ذلك كان يحدث في صغرها فقط حينما كانت طفلة لا تتجاوز السبعة أعوام، ولكنها آثرت الصمت وهي تصعد السُلم مرة أخرى، حينما قال أبوها في حنين:

ـ كنتُ كلما اشتاق إليها أنظر إليكِ.

ابتسمت (ليلى) وهي تجيبه مازحة:

ـ كنت تفعل أيَّ شيء كيلا تجعلنا نخرج، أحيانًا كنت أظن أنه لو كان بإمكانك إحضار المدرسة إلى المنزل لكنت فعلتها.

شرد أبوها قليلًا، ثم قال:

ـ لقد رأيت جدك في الحلم.

انتبهت إلى حديث أبيها حينما ذكر جدها، فانتهت مما تفعله سريعًا، وهبطت من على السُّلّم الخشبي لتجلس إلى جواره، وتسأله:

ـ بماذا حلمت؟

ـ كان سعيدًا يجلس مع عماتك، هل تعرفين أنه لم يزرني منذ أكثر من ثلاثين عامًا؟

نظرت إلى أبيها في استغراب، وهي تسأله:

ـ ماذا قال لك؟

نهض والدها، وقال وهو يتحرك متكئاً على عصاه:

ـ لا أذكر، سأذهب لأصلي الظهر.

تبعته بعينيها في قلق حتى اختفى داخل تلك الحجرة التي ينام بها كل ليلة، وقد شعرت بانقباض غريب في قلبها لا تعرف مصدره، ولكنها عادت لإكمال تركيب الأرجوحة حينما سمعت طرقات ضعيفة على الباب؛ فذهبت لترى مَنْ الزائر، وما إن فتحت الباب حتى هتفت في سعادة:

ـ أبلة (سميحة).

ـ (ليلى) بنت قلبي.

فتحت (سمحية) ذراعيها، فارتمت (ليلى) في أحضانها بشوق وحب، حيث ضمتها الأولى وظلت على هذا الوضع كأنها تعوض كل السنوات التى لم ترها فيها، تمامًا كما كانت تفعل وهي صغيرة.

جلست كلًا من (ليلى) و (سميحة) فوق الأريكة، وأخذتا تتبادلان السلام ومعرفة الأخبار، حيث قالت (سميحة) في لوم وعتاب ممزوج بحب:

ـ كل تلك السنوات دون سؤال يا (ليلى)؟

ربتت (ليلى) على كتف (سميحة)، وهي تجيبها بحب:

ـ لم أفتقد أحداً هنا مثلما افتقدتك يا أبلة (سميحة).

ثم وقفت فجأة، وقالت بحماس:

ـ انتظري، سأحضر شيئًا ستحبينه جدًا.

اختفت (ليلى) لحظات بداخل غرفة والديها، ثم عادت وفي يدها سبرتاية من النحاس وضعتها على المائدة أمام (سميحة)، وهي تقول بفخر:

ـ سبرتاية جدي (عبد الرحمن)، تخيلي ما زالت تعمل حتى الآن.

ـ ألف رحمة ونور على روحه الطاهرة.

قالتها (سميحة)، ثم بدأت في قراءة الفاتحة على روح الحج (عبد الرحمن)، بينما ذهبت (ليلى) لإحضار صينية وضعت عليها فنجانين فارغين، والقهوة والسكر ووضعتهما فوق المائدة، وهي تقول في سعادة:

ـ أما زلتِ تشربين القهوة بتلك الطريقة؟

افترشت (سميحة) الأرض، وقالت وقد بدأت في إعداد القهوة:

ـ لا أشربها إلا من على السبرتاية.

انضمت إليها (ليلى) على الأرض، فنظرت إليها (سميحة) في حب وهي تربت على كتفها:

ـ كما أنتِ يا (ليلى)، كنتِ أكثر أخواتك انبساطًا مع الجميع تمامًا كوالدتك الله يعطيها العافية والصحة.

ضحكت (ليلى)، وهي تجيبها قائلة:

ـ الجميع شيء، وأنتِ شيء آخر يا أبلة (سميحة).

ضحكت سميحة، ثم استغرق كلاهما في حديث طويل ممتع حول كل شيء.

(سميحة) الأقرب إلى قلب (ليلى) وأمها من دون بقية الجيران، والوحيدة التي كانت تستأمنها والدة (ليلى) عليها وهي طفلة لم تتجاوز العامين، حيث كانت تتركها معها طوال فترة عملها، ومن هنا نشأت تلك العلاقة المميزة بين (سميحة) و(ليلى)، وحتى بعد أن كبرت (ليلى) ودخلت المدرسة كان جلوسها مع (سميحة) في بعض أوقات الإجازات الصيفية من أحب ما تفعل. أما (سميحة) فبالرغم من ثقافتها البسيطة إلا أنها كانت تحب القراءة، وكثيرًا ما كانت تحضر قصص الأطفال، فتُجلس (ليلى) في أحضانها، وتحكي لها تلك القصص.

تزوجت (سميحة) وهي في منتصف الأربعينات ولم تنجب قط، كان زوجها أرملًا في بداية الخمسين من عمره، رجل بسيط ماديًّا واجتماعيًّا بلا أبناء، في البداية لم يهتم بعدم قدرتها على الإنجاب، وظلا هكذا لأكثر من خمسة عشر عامًا حينما أغناه الله وورث مبلغًا كبيرًا من المال، فقرر أن يتزوج لينجب وريثًا شرعيًّا، فقبلت (سميحة) بالأمر الواقع، ولم تستطع أن تعترض على ذلك الزواج، وخاصة حينما أصبحت ضرتها حبلى في أقل من عام..

ـ ادعي لها أن يشفيها الله، فقد كانت ولادتها متعسرة وحالتها في منتهى السوء.

نظرت إليها (ليلى) بعدم تصديق، وهي تسألها:

ـ هل كنتِ إلى جوارها أثناء الولادة؟

ـ بالطبع، وما ذنبها يا ابنتي، إنها فتاة مسكينة تأخرت في الزواج، وأصبحت عبئًا على أهلها الغلابة.

فسألتها (ليلى) في استغراب:

ـ وما الذي يجبرك على ذلك؟ لماذا لم تتركيه؟

ـ وإلى أين أذهب؟

أجابتها (ليلى) بدهشة:

ـ إلى منزل أبيكِ الموجود هنا في الحي.

ابتسمت (سميحة) بطيبة، وهي تقول في حكمة:

ـ وماذا تفعل عجوز مثلي قاربت على الستين بمفردها في كل ذلك المنزل؟

ثم أكملت بحنان وهي تنظر إلى (ليلى):

ـ ما زلتِ صغيرة يا (ليلى)، أدعو الله أن يعوض عليكِ بالزوج الصالح قريبًا لتعرفي أن الزواج ليس منزلًا وحوائط يا بنتي، الزواج سكن وأُلْفة.

ثم قالت وقد دمعت عيناها:

ـ وأنا بمفردي لا ولد ولا بنت، وكل أخوتي مشغولون بحياتهم وأبنائهم.

احتضنتها (ليلى) وهي تقول في حب:

ـ وأنا؟

أجابتها (سميحة)، وهي تقرصها برفق من وجنتها:

ـ أنتِ بنت قلبي، لن أحب أحداً مثلما أحببتك.

ظلتا هكذا في حوار طويل، وانضم إليهما والد (ليلى) ليكمل تلك الذكريات حتى تناهى إلى مسامعهم صوت أذان المغرب؛ فاستأذن والد (ليلى) في الذهاب إلى الصلاة، ووقفت (سميحة) هي الأخرى استعدادًا للرحيل، لتذهب إلى

ضرتها في المستشفى، فخرجت (ليلى) برفقتها وقد قررت أن تذهب لأداء صلاة المغرب في المسجد، ومن ثَمَّ الذهاب إلى الشيخ (جبريل).

انتهت (ليلى) من صلاة المغرب، ثم توجهت مباشرة إلى مقام (سيدي طلحة)، وقد علت وجهها ابتسامة عريضة وهي تتذكر ما قاله لها (الشيخ جبريل)عن أنهما سيكملان الحديث بعد غدٍ؛ فهي بالفعل وبسبب وفاة (أم هناء) وأحداث البارحة لم تستطع الذهاب إليه.

دخلت إلى المقام الذي كان مزدحمًا أكثر من أيِّ مرة سابقة؛ لتجد الشيخ (جبريل) ينتظرها بابتسامته الهادئة، فاقتربت منه وألقت عليه السلام، ثم جلست أمامه في هدوء.

كان يمسك بمِسبحته التي تشبه مِسبحتها الخضراء، ويتمتم ببعض التسابيح فظلت صامتة، وما إن انتهى وجدته يقول لها في أسف:

ـ البقاء لله.

فهمت (ليلى) أنه يقصد (أم هناء) فأجابته بحزن:

ـ ونِعْمَ بالله.

ثم قالت فجأة دون مقدمات:

ـ لقد حلمت بك أول أمس.

ابتسم الشيخ (جبريل) وهو يومئ برأسه، فأكملت قائلة:

ـ كنا هنا في ذات المكان، وكنت جالسًا مع جدي كأنك تعرفه جيدًا.

ـ ما شاء الله، جدك كان رجلًا صالحًا مُحبًا، وأرواح المحبين جميعًا تتعارف في ملكوت الله.

أخبرته اكتشافها أن جدها هو نفس الرجل الذي أتاها في الحلم وفي الحقيقة في دهب، ثم أنهت حديثها بزفرة متعبة، وهي تقول:

ـ أنا تائهة، كأن كل شيء واضح، ولكني لا أستطيع فهمه.
ـ قال الإمام الغزالي رحمه الله "لولا اعوجاج القوس، ما رمى"، أي أن كل تلك الحيرة والتيه اللذين تشعرين بهما ربما هما عين الحقيقة وأول الطريق.
تذكرت كلمة جدها في الحلم وهو يقول للشيخ: (ليلى الآن في الطريق)، فسألته بصوت مبحوح:
ـ أيُّ طريق؟
ـ طريق الحب.
قالها الشيخ (جبريل) وقد اغرورقت عيناه بالدموع، فنظرت إليه باستغراب وقد شعرت بشيء لا تفهم معناه يخرج من عينيه الباكية ويتسرب إلى قلبها، همَّت أن تسأله سؤالًا جديدًا حينما سمعت صوت امرأة عجوز تبكي بحرقة، وتقول:
ـ والنبي يا سيدي طلحة، اشفِ بنتي وأعدها لي بصحة جيدة.
نظرت (ليلى) إلى المرأة باستنكار، ثم عادت إلى الشيخ (جبريل)، وهي تسأله:
ـ مَنْ الشافي؟
ـ الله عز وجل.
ـ إذًا لماذا تطلب تلك السيدة من سيدي طلحة أن يشفي ابنتها.
ـ هي لا تطلب منه، هي ترجو منه الدعاء لابنتها بالشفاء؛ لأن دعاءه مجاب عند الله، كل ما هنالك أنها تتحدث بالفطرة، أما القلب فهو يدرك المقصد حتى وإن خرج الكلام عكس ذلك، قال الله تعالى:(**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**) {المائدة: 35}؛ فهذا الدعاء من باب الوسيلة.
نظرت إليه (ليلى) في عدم اقتناع، فأكمل قائلًا:

ـ هل تعلمين أن سيدنا النبي بنفسه في الحديث الشريف توسَّل إلى الله بالأنبياء الذين سبقوه حينما قال (اللهم إني أسألك بحقي وحق الأنبياء من قبلي) وهو سيدنا النبي حبيب الله، والتي تكون مشيئته من مشيئة الله تعالى، فما بال البسطاء؟

فسألته (ليلى) وقد بدأ يبدوعليها بوادرالاقتناع:

ـ وهل من المفترض أن يكون هناك وسيط بين العبد وربه؟

ـ وساطة الدعاء لا تقف حائلًا بين العبد وربه، بل على العكس تمامًا تزيد من القرب والحب، ألا تطلبين من والدتك أن تدعو لكِ؟ وحينما نرى شيخاً صالحاً نتوسم فيه المحبة والقرب من الله، ألا نطلب منه أن يدعو لنا؟ فما بالك برسول الله وآل بيته وأوليائه الصالحين.

سألته (ليلى) في فضول:

ـ وهل يسمعهم سيدي طلحة أو غيره من الأولياء؟

ـ عليهم سلام الله، بالطبع يسمعوا؛ ألا نقول في التشهد (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، فإن لم يكونوا يسمعونا لماذا نلقي عليهم السلام كل صلاة..

ثم أكمل وهو ينظر إليها نظرة ذات معنى:

ـ ثم إن حوار الأرواح لا يمنعه شيء، وإلا كيف استطاع جدك أن يتواصل معكِ؟

أومأت برأسها إيجابًا، وقد شعرت بشجن غريب يجتاحها، فلمعت الدموع في عينيها بلا سبب؛ ليبتسم لها الشيخ (جبريل) ويقول مشيرًا إلى قلبه:

ـ حينما يشعر القلب بجمال المحبة تدمع العين؛ فالعين مرآة القلب وأنتِ ميراثك في نور قلبك وعفة نفسك.

ـ ولماذا أنا بالتحديد؟
ـ مراد الله في عباده.
ـ ولكني طوال حياتي بعيدة جدًا، حتى إنني لم أنتظم في الصلاة إلا منذ أربعة أيام، أخطأت كثيرًا وأذنبت، فقد...
أسكتها الشيخ بإشارة من يده، وهو يقول بسلام:
ـ لقد سترَكِ الله، ثم عافاكِ ثم فتح لكِ بابًا للدخول، وكسا قلبك بنور ربما لم تستشعريه حتى الآن، ولكنه يسري في روحك منذ أن خلقك، إن الله يريدك، افرحي إنه يريدك.
بكت (ليلى) وهي تشعر بكل كلمة قالها الشيخ، وارتجف جسدها من قوة بكائها وهي تحاول أن تتحدث، ولكنها لم تستطع أن تقول كلمة واحدة، فلم تكن تفكر إلا في عظمة ما سمعت. لم يستطع عقلها أن يدرك أن الله بجلاله وعظيم شأنه يريدها هي بكل أخطائها وذنوبها ومعاصيها وآثامها.
يريدها بتقلباتها وبعدها عنه، يريدها بجموحها وغضبها من قضائه وقدره.
يريدها بعد أن رأت أنه خذلها حينما كتب لها حياة جديدة.
كيف يريدها بعد كل ذلك، وهناك آلاف بل ملايين غيرها يرجون وجهه؟
وكأنما كان الشيخ (جبريل) يقرأ أفكارها، فنظر إليها في شفقة وهو يقول:
ـ هناك مقولة رائعة للإمام الجليل (محمد الشعراوي) تقول "من الناس من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله، ومنهم من يصل بكرامة الله أولًا إلى طاعة الله"، وأنتِ من المرادين الذين سيصلوا بكرامة الله أولًا إلى طاعته وحبه.
هدأت حدة بكائها قليلًا، ولكنه لم يتوقف وهي تفكر أن الذهاب إلى الله لم يكن اختيارها الأول أبدًا، لم يكن ملجأها، حتى إنها في الفترة الأخيرة وانهيار حياتها لم تفكر في الاقتراب منه، بل زادت سقوطًا في بئر الخطأ.

كان في قلبها دائمًا، ولكنها لم تحاول أن تتقرب إليه شبرًا، تناجيه وتطلب منه العون، وهي لم تفعل شيئًا واحدًا جيدًا يجعلها تقف بين يديه دون خجل، وبرغم كل ذلك يسر لها كل الأسباب وسخَّر لها الأقدار؛ لتأتي إليه فيتلقاها برحمته وينقذها بكل حب.

أَذَّن المؤذن لصلاة العشاء فمسحت دموعها بكلتا يديها، ثم نظرت إلى الشيخ وهمَّت أن تقول شيئًا، فابتسم لها في محبة وود، وقال لها:

ـ يكفي ذلك اليوم.

أومأت برأسها إيجابًا دون أن تتحدث، فقد كانت بالفعل مرهقة ومتعبة. وقفت في تثاقل واستأذنته في الرحيل، وقبل أن تخرج من باب المقام قال لها بصوت ملؤه الأمل:

ـ هوني على نفسك يا (ليلى) إن الله غفور رحيم.

نظرت إليه قليلًا، ثم ابتسمت وقالت:

ـ أنا لم أخبرك باسمي من قبل يا شيخ (جبريل).

ثم رحلت في هدوء وتثاقل، وهي تجرُّ قدميها التي شعرت أنهما مخدرتان، بل كان جسدها بأكمله مخدرًا بالكامل.

سارت وهي تشعر بخواء شديد داخلها كأن صدرها أصبح حجرة فارغة بلا جدران، يمرُّ الهواء من خلالها دون أن يرتطم بشيء، وعقلها كان مبهوتًا لا يستوعب كل ما سمعه، أما قلبها فأصبح واسعًا كبيرًا شعرت أنه يحتل كل صدرها، وعلى الرغم من كل تلك الانفجارات التي أحدثتها كلمات الشيخ (جبريل) إلا أن الوضع كان بداخلها هادئًا جدًا.

وصلت إلى المنزل لتجد والدها يجلس وحيدًا في شرفة المنزل، شاردًا كعادته مؤخرًا، فألقت عليه التحية ولكنه لم يردها، فاقتربت منه وسألته أن تقوم

بتحضير العشاء له، ولكنه رفض متعللًا بأن لا رغبة لديه في الطعام، ثم قال لها فجأة:

ـ والدتك ستأتي غدًا.

نظرت (ليلى) إلى أبيها باستغراب، وهي تسأله:

ـ لماذا؟

أجابها وهو متجهًا إلى فراشه:

ـ لأنها يجب أن تكون موجودة، فلا أحد يعلم متى سنعود.

لم يكن لديها طاقة للحديث فسألت والدها وهي تقوم بتغطيته:

ـ هل ستأتي معي غدًا لزيارة قبر جدي؟

ـ لا، سأذهب بعد غد.

ثم أغمض عينيه كأنه ينهي الحوار.

وبعد أن انتهت (ليلى) من صلاة العشاء ظلت في مكانها، وقد استندت بظهرها إلى الحائط محتضنة قدميها بذراعيها وهي تستعيد كلمات الشيخ (جبريل)، وهنا انهارت في البكاء.

لم يكن بكاءً عاديًا أو مجرد دموع صامتة كما اعتادت مؤخرًا، بل كان نحيبًا بصوت عالٍ لم تستطع كتمانه، ظلت هكذا تشهق من قوة بكائها وهي تتذكر كل شيء مرَّ بحياتها، وهي تتذكر كم كانت بعيدة جدًا وتظن أنها من أقرب القريبين.

معانٍ كثيرة جديدة نبتت بداخلها وهي تفكر بحب في الله وفي حب الله، في رحمته وعظمته، في تدبيره وكرمه، وفي حبه لها، وهنا انهارت في نوبة بكاء أشد ألمًا وقهرًا.

كان مجرد التفكير في المعنى يرتجُّ له جسدها بأكمله، ويكاد يقسم قلبها نصفين، كأنهم أعادوا فتح جرحها من جديد، كأن هناك يدًا تمسك قلبها بين قبضتها وتعتصره فتأوهت في ألم، وقالت بحرقة:

ـ آآآآه، يارب.

وأخذت نفسًا عميقًا، ثم هدأ كل شيء، فألقت بجسدها في وهن فوق سجادة الصلاة وقد شعرت ببرودة عجيبة تسري في أوصالها، ورياح رطبة رقيقة تداعب وجهها بالرغم من ارتفاع حرارة الجو في ذلك الوقت من شهر يوليو.

أكاد من فرط الجمال.. أذوب
هل يا حبيب في رضاك نصيب؟
جعلت قلبي يهفو دومًا للقاء.
وإذا ذكرتك يا حبيبي أطيب..

تناهى إلى مسامعها ذلك الموال، فأخذت تردد في سعادة اجتاحت كل روحها تلك الكلمات التي طالما حفظتها، ولكنها لم تفهم معناها أو تشعر بجمالها إلا الآن، لم تكن تفكر في شيء على الإطلاق، كأن كل شيء تبخَّر من رأسها، حتى (يحيى) الذي اعترف لها البارحة بحبه نسيته.

بمجرد الأذكار قلبي هائم..
هل فؤادي عنك قط يغيب؟
إني الأسير بحبي فيك، في شرع الهوى.
فارحم قلوب نال منها شحوب..

كانت تظن أن إحساس سماعها لتلك الكلمة من (يحيى) سيساوي لديها الحياة، ولكنها كانت مخطئة، فما تشعر به الآن لا يضاهيه شيء في روعته وعظمته..

من يغفر الزَّلات؟

غيرك سيدي..

إني السعيد إذا أتيتُ أتوب..

شاقني وجدي وحُبُك مطلبُ..

من شاقه حبُ الجمال يصيب..

ما ينتشر في قلبها بتلك السرعة هو أمر غريب كليًّا عليها، إحساس لن يفهمه إلا من شعر به، ومعانٍ لن يستطيع أحد شرحها مهما عظمت بلاغته في اللغة، هو إحساس أشبه بذلك الذي ينتابك حينما تستلقي على ظهرك تاركًا نفسك للأمواج ترفعك وتدنيك ولكن دون خوف، فلم يعد في قلبها مكان لأيِّ خوف، كل ما يجتاحها الآن هو ثقة لا حدود لها، وأمان استوطن روحها، وسكينة استقرت بين جنباتها.

شعرت بندم عن كل لحظة كانت فيها بعيدة لا ترى من الدنيا سوى حزنها ووحدتها، ولكنها ابتسمت في سلام وهي تتذكر كلمات الشيخ (جبريل)..

إن الله يريدها، إن الله يحبها.

***



(ولعل ثقبًا أصاب قلبك، جعله الله لك عينًا تبصر بها الحقيقة)

جلال الدين الرومي...

الليلة السادسة

جاءت والدة (ليلى) باكرًا، وما إن سرى خبر وصولها حتى امتلأ المنزل بجميع جيرانهم القدامى، فقد كانت والدتها محبوبة من الجميع، متواضعة، طيبة تتعامل بحب وحنان مع الجميع مهما اختلفت ثقافاتهم عنها، تجاملهم وتودهم وتسمع شكواهم؛ لذلك كان الجميع يعشقها.

امتلأت شقة الدور الأرضي بالزوار المرحبين في محبة صادقة؛ فجلس الجميع يتوسطهم والد (ليلى) الذي كان شاردًا بعض الشيء، ولكنه كان سعيدًا جدًا بذلك التجمع، ووالدتها التي لم تتوقف عن الحديث واستعادة الذكريات دون أن تفارقها ابتسامتها الفرحة من ذلك الحب والود الظاهر بقوة.

أما (ليلى) التي كانت تقوم بإعداد القهوة والشاي وتقديم واجب الضيافة للجميع، كانت روحها تسري في مكان آخر وتطوف في تلك السحابة من السلام التي أصبحت تصاحبها وتظللها أينما ذهبت.

نظرت إلى أبيها باستغراب وشفقة فقد كان حزينًا، يتطلع إلى جدران المنزل ومحتوياته وتفاصيله، وقد اغرورقت عيناه بدموع حبيسة فاقتربت منه وسألته بقلق وهي تجلس إلى جواره:

ـ هل أنت بخير؟

ـ لم أكن يومًا أفضل من الآن.

قالها أبوها وهو ينظر إليها نظرة عرفان وشكر، ثم مدَّ يده اليمنى واحتضنها بقوة، وقبَّلها في جبينها قبلة حارة.

اضطربت (ليلى) من فعل أبيها، فهو لم يحتضنها بتلك القوة منذ كانت طفلة، بل لم يحتضنها بذلك الحنان على الإطلاق، فدمعت عيناها وقد جاشت مشاعر

كثيرة بصدرها جعلتها تمسك بيده الأخرى وتقبِّلها في حب وهي تدفن رأسها في كتفه وكأنها تتعرف إلى أبيها من جديد، كأنه كان مسافرًا طوال حياته وعاد توًّا يملؤه الشوق في تعويض كل ما مضى.

ـ البركة فيكِ يا (ليلى).

قالها والدها وهو يتنهد بحرارة، فقبَّلت يده مرة أخرى، وهي تقول:

ـ لا بركة إلا بوجودك يا حج (أحمد).

ثم قبلت جبينه في حنان وتركته حينما رأت (سميحة) تدخل إليهم وهي ترتدي ملابس سوداء، وتحمل في يدها طفلاً رضيعاً..

وقفت (ليلى) تنقل نظرها بين (سميحة) وبين الرضيع في تساؤل، حينما اقتربت منها (سميحة) وقبلتها، ثم قالت من بين دموعها:

ـ ابني، عوض الله لي بعد كل ذلك الحرمان.

***

لم تفكر (ليلى) في شيء طوال طريقها إلى المقابر لزيارة جدها إلا في (سميحة) التي كانت تحمل طفلًا رضيعًا في رؤياها، تقبِّله وتضمه إلى صدرها في حنان وحب.

(سميحة) التي رضيت بأمر الله حينما حُرمت من الإنجاب، وحينما تزوج زوجها بامرأة أخرى، فأرضى الله قلبها وعوضها بما كانت تتمناه طوال حياتها، فأصبحت أمًا وهي على مشارف الستين من عمرها بعد أن ماتت زوجة زوجها الثانية.

بدأت الأمور تتضح لها بقوة، وبدأ قلبها يستشعر تلك الرسالة التي خصها الله بها فابتسمت في زهو وهي تنظر إلى السماء في حب، وتشعر أن الله يصاحبها خطوة بخطوة..

جاءها صوت أحد المجاذيب الذين يفترشون الأرصفة، وهو يقول:
ـ المدد ساري والعبد مش داري.
فاتسعت ابتسامتها واقتربت منه لتعطيه بعض النقود، أخذها منها وقبَّلها، ثم قال بصوت عالٍ كأنه يتحدث مع شخص لا أحد يراه:

متلومش أهل الحال على اللي هما فيه.
فيهم اللي في برد الشتا..
قلع جميع ما عليه..
لا فرش ليه ولا غطا..
لكن حاله بقى مدفيه.
وفيهم اللي في حر الصيف..
تقّل هدومه عليه..
نسايم النعيم دايره تعوي عليه..
وفيهم اللي أعمى وأطرش..
لكن يسمع ويشوف حواليه..
أصل هما أهل العناية..
واخدين وسام الولاية..
والقلب زي المراية..
اللي نظفه يوريه..

رقَّ قلب (ليلى) من تلك الكلمات واستعذبتها بقوة وهي تتعجب كيف تخرج من ذلك المجذوب الذي لا يبدو عليه أنه يدرك أيَّ شيء من حوله.

وفي المقابر، جلست أمام قبر (أم هناء)، قرأت الفاتحة على روحها، وبدأت تقص عليها كل ما لم يمهلها القدر لتحكيه وهي على يقين أن (أم هناء) تستمع إليها جيدًا، وحينما انتهت قرأت لروحها الفاتحة مرة أخرى، واستأذنتها للذهاب لزيارة جدها.

وأمام قبر جدها وبعد عدة ساعات كانت تنظر نظرة رضا وفخر إلى النتيجة التي وصلت إليها في تنظيف المكان، بعد أن قامت باقتلاع الحشائش التي نمت بشكل عشوائي وزرع نباتات جديدة.

افترشت الأرض الترابية، وأسندت ظهرها إلى إحدى جوانب قبر جدها بلا خوف ولا رهبة، وهي تنظر إلى السماء التي أصبح لونها لبنيًا جميلًا، وقد توارت الشمس مخلفة وراءها ذلك الضوء البرتقالي الناري.

وضعت يدها في جيبها، لتخرج مِسبحتها الخضراء وأخذت تتطلع إليها في صمت للحظات، ودون أن تشعر أغمضت عينيها، وانفصلت تمامًا عن كل ما حولها؛ لترى نفسها مقبلة على قبر جدها، وقد عادت قدمها اليسرى تؤلمها من جديد، حتى إنها كانت تستند على تلك العصا مرة أخري ـ ولكنها كانت عصا أبيهاـ وهي تقترب من القبر في بطء؛ لتنظر حولها، وتجد المكان نظيفًا تمامًا كما تركته، ولكن نباتاته مزدهرة بشكل تعجبت منه، فتساءلت بداخلها كيف نمت النباتات بتلك السرعة؟ ولكنها نسيت أمر تساؤلها تمامًا حينما وصلت إلى القبر ووجدته مفتوحًا، فانقبض قلبها وهي تنظر إليه في عدم فهم.

كان القبر مزينًا بورود كثيرة، وبابه مفتوحًا عاليًا، ولكن الأعجب أنه كان مضاءً بالكامل.

وما إن خطت إلى الداخل حتى أغمضت عينيها من قوة النور الذي غشاها، ثم بدأت تفتحهما ببطء لتعوّد عينيها على ذلك النور القوي وهي تنظربفضول؛

فكثيرًا ما تساءلت: كيف تبدو القبور من الداخل، ولكنها لم تر شيئًا سوى النور في كل مكان، حتى وقعت عيناها على جدها الذي كان يجلس متربعًا في إحدى الجوانب ممسكاً بمِسبحتها الخضراء، وينظر إليها وهو يبتسم ابتسامة رائعة.

فرحت (ليلى) بشدة لرؤيته واقتربت منه وجلست بجواره فربت على كتفها بحنان، وقال وهو ينظر حوله:

ـ لقد أعددتِ المكان جيدًا، وأصبح جاهزًا.

ابتسمت له (ليلى) في حب، ثم سألته في فضول:

ـ جدي، أين الأمانة؟

ـ في الطريق.

ـ وأين الطريق؟

أشار بسبابته إلى ناحية قلبها، وقال:

ـ في القلب، وطالما لا يحمل القلب سوى الحب فأنتِ على الطريق الصحيح.

فسألته في حيرة:

- وكيف الوصول؟

ابتسم جدها وهو ينظر بعيدًا، وقال في هيام:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم (**نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) {النور: 35}، هذا الطريق غايته ليست في الوصول.

ثم أكمل قائلًا:

ـ هيا فقد وجبت صلاة المغرب.

انتفضت (ليلى) على صوت أذان المغرب وهي تنظر حولها في فزع، ثم ما لبثت أن تنفست في راحة حينما وجدت نفسها خارج القبر وبابه مغلقًا ساكنًا كما هو،

وكأنها تذكرت شيئًا فأخذت تبحث في جيوبها عن مِسبحتها، ولكنها لم تجدها فعادت إلى حيث كانت تجلس وأخذت تبحث عنها، ولكنها لم تجدها أيضًا، نظرت حولها في حيرة من أمرها وهي متأكدة أنها كانت في يدها قبل أن تأخذها تلك الغفوة؛ لذلك عادت مرة أخرى ونبشت بيدها في التراب لربما وقعت منها وغطتها الأتربة من وقفتها المفاجأة، ولكنها لم تجد شيئًا، وهنا شعرت برهبة غريبة فقررت الرحيل وترك المكان فورًا حيث ذهبت لأداء صلاة المغرب في مسجد سيدي طلحة، وكل ما يشغل تفكيرها أين ذهبت المِسبحة؟

انتهت (ليلى) من صلاتها ولا يتردد في أذنيها سوى صوت جدها، وتلك الآية الكريمة التي كان يقرؤها، فأمسكت هاتفها وفتحت المصُحف الإلكتروني لتبحث عن بقية الآية لتجدها كاملة فور أن كتبت كلمة (**نُورٌ عَلَى نُورٍ**) فأعادت قراءتها مرة أخرى.

بسم الله الرحمن الرحيم (**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) {النور:35}

ظلت تعيد في قراءة تلك الآية وهي تحاول أن تكتشف ما المقصود منها، ثم قامت بالبحث عن تفسيرها، ولكنها لم تفهم شيئًا مما قرأته، فقررت أن تذهب على الفور إلى الشيخ (جبريل).

وهناك، داخل المقام اخترقت (ليلى) الزِّحام وذهبت إليه لتجده ينظر ناحيتها ويبتسم كأنه كان في انتظارها، فجلست بالقرب منه وحيته بمودة، وقصَّت

عليه ما رأته في غفوتها منذ قليل، ثم أنهت حديثها بسؤاله عن معنى تلك الآية الكريمة، فأوما الشيخ (جبريل) برأسه، وقال وهو مغمض عينيه:
ـ الاسم (الله) حينما يتنزل على قلب العبد ينيره ويزيل عنه الحجب؛ فيحدث القرب والذي يكون من علاماته الوجد والاشتياق، أي أن العبد يشعر بالأُنس من الله، يشعر بأن الله يربت على قلبه ويسير معه في كل مكان.
أومأت (ليلى) برأسها في انفعال مما تسمعه، فقد كان الشيخ (جبريل) يصف بدقة ما تشعر به؛ ليكمل قائلًا:
ـ والاشتياق هو الرغبة في الاستزادة من ذلك القرب، المشكاة هي الصدر والمصباح هو القلب؛ فالقلب حينما يقترب من الله يصبح كالكوكب المضيء المتوهج بالحب.
ـ ولماذا لم يقل جدي سوى ذلك الجزء من الآية؟
ضحك الشيخ (جبريل) ضحكة رائقة، وهو يقول:
ـ مدد يا حج (عبد الرحمن)، ليدلك على طريق الحب؛ فنور الله هو الطريق لمحبته.
فسألته في حيرة:
ـ كيف يكون الطريق في القلب؟
ـ لأنه طريق الحب، والقلب موطن الحب.
زادت حيرة (ليلى) وتنهدت بقوة، ثم قالت:
ـ أنا لا أفهم شيئًا، هناك فوضى غريبة بداخلي، كيف يحبني الله بعد كل تلك الأخطاء والذنوب؟ أنا أعلم أنه غفور رحيم، ولكن ما أنا فيه الآن شيء كبير، أكبر من أن أفهمه أو أستطيع استيعابه، أكبر من أن استحقه.
ابتسم الشيخ (جبريل)، وهو يقول:

ـ ومن قال إن من شروط السير إلى الله أن يكون العبد في حالة طهر ملائكية؟ نحن بشر نسير إليه محملين بأثقال ذنوبنا وأخطائنا، وهو يحب قدومنا إليه عُرجًا ومكاسير.

تألم قلب (ليلى)، وبدأت في البكاء وهي تقول بندم واضح:

ـ ولكنني أبدًا لم أحاول أن اقترب ولم أسعَ إلى التوبة.

ابتسم لها في شفقة وهو يقول مهونًا عليها:

ـ قال تعالى: **(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)** {التوبة:118} إن الله هو الذي يبدأ بالتوبة ليعود إليه العبد تائبًا، ثم من قال إنكِ لم تسعِ إلى التوبة من قبل؟ لقد كان قلبكِ يسعى دائمًا بمناجاته لله في كل وقت.

ثم أكمل قائلًا:

ـ كان قلبك يسعى بانكساره، يسعى وهو يفعل الذنب بخوف من الله، ربما لم يثنيه الخوف عن فعل الذنب، ولكن أيضًا لم يمنعه الذنب من تذكر الله دائمًا، تلك هي المحبة الخاصة والثقة العظيمة في أن الله توَّاب غفور.

أومأت (ليلى) برأسها من بين دموعها، ثم سألته:

ـ أين أجد تلك الأمانة التي قال عليها جدي؟ أين أبحث عنها؟

اتسعت ابتسامة الشيخ، وهو يجيبها بثقة:

ـ هي التي ستجدك.

قالها بطريقة جعلت صوت قلبها يعلو ودقاته تضرب صدرها بقوة كطفل يضرب رحم أمه للخروج إلى الحياة.

ـ أنا لا أفهم شيئًا مما تقوله، ولكني أشعر.

ـ هوني على نفسك يا (ليلى) إن الحب يسري في قلبك، ومدد الله يسري في روحك، ألم أخبرك من قبل أنه ميراث؟ إن روح جدك تزكيكِ عند الله.

فسألته (ليلى) في استغراب:
ـ كيف تعرف جدي؟
فأجابها مبتسمًا وهو يتنهَّد:
ـ إن الله يجمعنا بالطيبين دون سعي منّا.
ـ وكيف يكون الحب؟ ماذا أفعل لأحب الله؟
ـ الحب ليس فعلًا، بل هو إحساس لا نستشعره إلا عن طريق ارتفاع الحجب عن القلب، فنشعر بوجود الله، فهو الحيُّ قبل كل حيٍّ وهو الحيّ بعد كل حيّ وبعد كل ميت، وهو الحيّ الذي لم يرث الحياة من حيّ.
ـ وكيف تزول تلك الحُجب؟
فاضت عينا الشيخ بالدموع وهو ينظر إلى قبة المقام، ويقول بهيام:
ـ بذكر المحبوب.
ثم عاد ينظر إليها، وأكمل قائلًا:
ـ يقول الله تعالى: (**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**){البقرة:152}الذكر هو طريق الحب الوحيد.
همَّت بأن تسأله سؤالًا آخر حينما ارتفع صوت أذان العشاء فنظرت إليه كالغريق الذي يحتاج للإنقاذ؛ لتجده يبتسم إليها وهو يومئ برأسه علامة أنه يدرك كل ما يجول في خاطرها، فقال بطريقة ملأتها بالسلام:
ـ غدًا الليلة الكبيرة، وستقام حضرة ذكر في نفس التوقيت. سأنتظرك وستفهمين كل شيء، ثم استأذنها في أدب ورحل لأداء صلاة العشاء.
تبعته في هدوء دون كلمة واحدة، وفي الخارج رأت ذلك المجذوب الذي رأته في الصباح هائمًا على وجهه يتحدث بصوت عالٍ، ويقول صائحًا:
ـ لو حبيت يبقى من الغرق عديت، ولو غرقت يا ولد نادي على آل البيت.

ابتسمت (ليلى) من كلمات المجذوب التي ظلت تتابعها وهي في طريقها إلى المنزل، بينما كان عقلها يعيد ويزيد في كلمات الشيخ (جبريل) وهي تنظر إلى السماء، ولسان حالها يسأل الله كيف تحبني كل ذلك الحب، وأنا كنت بعيدة عنك كل ذلك البُعد؟

و ما إن وصلت إلى المنزل حتى توجهت على الفور إلى حجرتها، لتبحث عن المِسبحة تحت الوسادة، ولكنها لم تجدها؛ فقررت وهي تستلقي بإرهاق فوق الفراش أن تبحث عنها غدًا مرة أخرى، وهي تصطحب أباها لزيارة جدها.

أما الآن فهي تريد أن تظل هكذا... مستكينة لا تفكر في شيء، ولا يزعجها شيء، وكأن كل الأمور في الحياة قد استوت لديها، فأغلقت عينيها في أمان وغطت في نوم عميق.

لم تكن تعرف كم من الوقت استغرقت في النوم حتى جاءها ذلك الصوت.

كان صوت أمها بعيدًا وهي تنادي عليها في هلع، ثم رويدًا رويدًا بدأ الصوت يقترب وقد تحول إلى صراخ ممزوج بنحيب.

أفاقت (ليلى) من نومها في فزع، فأمسكت بهاتفها المحمول، لتجد الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، حينما انتبهت أن ذلك الصراخ حقيقي، فانتفضت مفزوعة من فوق الفراش، وأسرعت إلى أمها وما إن وصلت إليها حتى تسمَّرت في مكانها عند باب الحجرة، وهي تنظر إلى أبيها الذي يرقد في سبات دون حركة مغمضًا عينيه في سكينة، بينما تحاول أمها تحريكه بلا فائدة وهي تبكي وتتوسل إليه أن يجيبها، ثم تصرخ فيها أن تطلب الإسعاف، ولكن (ليلى) كانت تعرف أن لا فائدة.

لقد مات أبوها.

***

(ما ضرك لو أطفأ هذا العالم كله أضواءه في وجهك، ما دام النور في قلبك متوهجًا)

مولانا جلال الدين الرومي

الليلة الكبيرة

مات الحج (أحمد)، مات أبوها فجأة دون إنذار رغم أنه كان يحاول أن يخبرها بذلك منذ أسبوع مضى، منذ أن أخبرته أنها ستأتي إلى كفر الشيخ، وقرر هو أن يصحبها، فقد حان موعد عودته كما قال؛ حينما أخبرها بأنه حلم بجدها دون أن يخبرها بتفاصيل ذلك الحلم؛ حينما رفض مصاحبتها لزيارة قبر جدها أمس قائلًا أنه سيزوره اليوم.

جلست (ليلى) أمام قبر جدها تنظر إلى شاهد القبر بدموع صامتة، وتفكر في ألم أنه قريبًا سينضم اسم أبيها إلى هنا، مكتوبًا على شاهد جديد، وسيجتمع أبوها بجدها مرة أخرى.

كل شيء حولها كان يخبرها برحيله، طلبه من أمها أن تأتي وشروده الدائم ونظراته المودِّعة لكل شيء حوله، كان يجب أن تلتفت إلى كل ذلك، ولكنها لم تفعل، الآن فهمت حُلم البارحة، فهمت ما قاله جدها عن أن المكان قد أصبح جاهزًا، فهمت لماذا كانت تتوكأ على عصا أبيها في الحلم، ثم تركتها بداخل القبر..

ارتجَّ جسدها من قوة بكائها، وهي تنظر حولها إلى ذلك المكان الذي جاءته البارحة لتنظيفه جيدًا، وكأنها كانت تعدَّه دون أن تعلم ليليق باستقبال أبيها.

ما لبث أن عاد إليها بعد طول غياب وحرمان، وها هو قد رحل فجأة؛ ليتركها وحيدة تتمنى يومًا آخر تقضيه بين ذراعيه؛ لتعوض به كل تلك السنوات التي حرمها فيها من حنانه.

لم تستطع أن تنتظر في المنزل، وهو يرقد في إحدى حجراته بلا حراك، بلا حياة، ولم تستطع أن تسبق الجميع كعادتها إلى المسجد؛ فقررت أن تنتظره هنا أمام مثواه الأخير.

نظرت إلى السماء، وهي تتساءل لماذا يحاوطها الموت منذ جاءت إلى هنا؟ هل هي رسالة جديدة من الله يجب عليها أن تفهم معناها؟

غطت وجهها بكلتا كفيها، ثم انفجرت في المزيد من البكاء، حينما تذكرت قرارها بأن تجلس اليوم مع أبيها، لتحكي له كل ما مرَّت به منذ أن عادت إلى الحياة، تحكي له عن رؤياها وعن أحلامها بجدها وعمَّا أخبرتها به (أم هناء)؛ فهي لم تخبره بأيٍّ من ذلك، ثم وفي المساء كانت ستصطحبه إلى المولد كما كان يفعل معها وهي صغيرة، ستجعله يتأبط ذراعها السليم ويستند إليها؛ ليجوبا أرجاء المكان ثم تجبره على أن يبتاع لها الحمص وعروسة المولد، وكل الألعاب التي كان يبتاعها لها في الليلة الكبيرة.

ربتت يد قوية على كتفها لتنتفض في فزع ما لبث أن تحول إلى عدم تصديق، وهي تقول باستغاثة:

ـ (يحيى)،

ثم أكملت وجسدها يرتج:

ـ بابا مات.

قالتها وارتمت في صدره بانهيار، فضمها بقوة وقد شعر بحزن شديد عليها من تلك الحرقة التي كانت تبكي بها.

ألقت بكل وجعها على صدره بلا خجل؛ فهي على يقين إنها في آمن مكان في العالم، في تلك المنطقة بين ذراعيه التي تعرف جيدًا أنها ستتسع لكل وجعها وألمها وحزنها.

ـ كيف عرفت؟

سألته بوهن بعد أن هدأ بكائها قليلًا، ربت (يحيى) على ظهرها وأجابها وهو يضمها إليه أكثر:

ـ هاتفك مغلق منذ البارحة، لا أعرف.. شعرت أن الأمور ليست على ما يرام، ولم أفكر مرتين، قررت الحضور فورًا.

أغمضت عينيها في ألم حينما تناهى إلى مسامعها صوت أذان الظهر؛ فنظرت إليه وقالت بشفاه مرتجفة وعيون دامعة تجمعت بهما أحزان العالم:

ـ سيأتي أبي بعد قليل.

قالتها ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عنه، وجسدها ينتفض من نوبة البكاء الجديدة التي هاجمتها، فاقترب منها (يحيى)، وأمسك بإحدى يديها في حزن، وهو يشعر بالعجز الشديد أمام دموعها.

ظلا هكذا بعض الوقت حتى لاحت جنازة أبيها من بعيد؛ فانقبض قلبها واعتصره الألم وهي ترى أباها محمولًا على الأكتاف إلى مثواه الأخير.

نظرت إلى قبر جدها في ألم وهي تسير باتجاه الجنازة يتبعها (يحيى) وهي تنظر في رهبة إلى النعش الذي يحمل جثمان أبيها، ثم رفعت سبابتها وأخذت تنطق الشهادتين وقد عادت دموعها إلى مجراها مرة أخرى، وما إن رأت الشيخ (جبريل) من ضمن حاملي النعش حتى نزلت على قلبها السكينة، وقد تيقنت بوجوده أن أباها في أيد أمينة؛ لذلك تراجعت إلى الخلف لتنضم إلى أمها التي كانت منهارة من الصدمة، وبقية النساء اللائي توقفن عند نقطة معينة حيث كان ممنوعًا على النساء في مدينتهم حضورعملية الدفن، بينما أكمل (يحيى) مع الجنازة بل وقام بحمل النعش أيضًا حتى وصلوا إلى القبر.

كانت الرؤية محجوبة عنها تمامًا، ولكنها فجأة سمعت هرجاً ومرجاً، وقد تعالت صيحات الرجال الذين كانوا يكبِّرون ويهلِّلون بصوت جهوري؛ فتألم جسدها كله وهي تظن أن تلك هي لحظة دخول أبيها إلى مثواه الأخير، فسالت دموعها في صمت وهي تقرأ الشهادتين وتكبِّر وتهلل معهم، ولكن زاد الأمر بشكل غريب، وظل الرجال يكبِّرون ويهللون بصوت عالٍ وبحماس؛ فتركت (ليلى) أمها وحاولت الاقتراب من القبر، حينما سمعت بعض الرجال يرددون:

ـ مدد يا شيخ (عبد الرحمن)، مدد يا شيخ (عبد الرحمن).

عقدت (ليلى) ما بين حاجبيها في استغراب، وقد ارتفعت دقات قلبها بقوة وارتعشت أطرافها وهي تحاول اختراق جموع الرجال؛ لتبين الأمر حينما رأت (يحيى) مقبلًا عليها لاهثًا وعلى وجهه علامات الذهول، فسألته في قلق:

ـ ماذا حدث؟

ابتلع (يحيى) لعابه في صعوبة، وهو يسألها:

ـ من آخر من دُفن في هذا القبر؟

عقدت (ليلى) حاجبيها في استغراب، وهي تجيبه:

ـ على حد علمي كان جدي؛ فوالدي ولد وحيدًا، وأخوات جدي ـ جميعًا ـ كلٌّ منهم يملك مقبرته الخاصة، لماذا؟

تنفَّس (يحيى) بقوة، وهو يقول:

ـ لقد وجدوا الجسد كما هو لم يتحلل حتى الآن.

نظرت إليه (ليلى) في عدم فهم، كيف يكون ذلك؟ هل من الممكن أن يظل الجسد دون تحلل لأكثر من خمسة وأربعين عامًا؟ ربما فتح أحد المقبرة دون علمهم وقام بالدفن فيها، وربما يكون والدها على علم بذلك، ولكنه بالتأكيد كان سيخبرها بشيء كهذا، وخاصة أنه كان يشعر بقرب أجله.

علت أصوات الرجال مرة أخرى، وهم يقولون:
ـ لا إله إلا الله، مدد يا مولانا، مدد يا شيخ (عبد الرحمن).
ثم تناهى إلى مسامعها صوت الشيخ (جبريل) وهو يدعو لأبيها، والجميع يؤمِّن على دعائه، فتركت (يحيى) واخترقت الزحام حتى وقفت مباشرة أمام القبر تنظر إلى الشيخ (جبريل) في تساؤل؛ لتجده محمرّ الوجه يتصبب العرق الغزير من كل وجهه، بينما كانت يداه ترتعشان بشكل ملحوظ، وعيناه معلقتان بالسماء، وبعد أن انتهى من الدعاء بدأ الجميع في الرحيل، وهم لا يتحدثون عن شيء سوى عن جدها (عبد الرحمن) ذلك الولي الذي مات منذ أكثر من خمسة وأربعين عامًا، ومازال جسده كما هو.
رحل الجميع ولم يتبقَ سوى (ليلى) و(يحيى) والشيخ (جبريل) الذي كان يجلس متربعًا على الأرض ممسكًا بمِسبحته، ويتمتم ببعض الأدعية؛ فانضمت إليه (ليلى)، ولحقها (يحيى) الذي ما زال مذهولًا مما رآه فظل صامتًا لا يجد ما يقوله.
(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) {يونس:62}
قالها الشيخ (جبريل) فجاءة دون مقدمات كأنه كان يقرأ أفكار (ليلى) وحيرتها، فالتفتت إليه وسألته:
ـ هل هذا الموجود بالداخل جثمان جدي؟
أومأ الشيخ (جبريل) برأسه إيجابًا، فعادت وسألته بعدم تصديق:
ـ هل أنت متأكد؟
ابتسم الشيخ وهو يجيبها في هدوء:
ـ نعم، وأنتِ أيضًا متأكدة، ولكنكِ لم تتركي لقلبكِ العنان بعد.
كادت أن تسأله سؤالًا آخر حينما مدَّ يده إليها بمِسبحة خضراء قديمة ومتربة، وقال:

ـ هذه لجدك، كانت معه بالداخل.

ارتعشت يد (ليلى) وهى تنظرإلى مِسبحة جدها والتي رأتها معه كثيرًا في أحلامها، وهي تفكر في مِسبحتها التي فقدتها البارحة، وقد هاتفها شيء في قلبها أن لتلك المِسبحة علاقة بالأمانة التي كان يتحدث عنها جدها، فأحكمت قبضتها عليها وهي تنظر إلى الشيخ (جبريل) الذي قال لها هو يقف مستعدًا للرحيل:

ـ أبوكِ في أمان لا ينقصه سوى الدعاء.

ثم أكمل وهو ينظر إليها نظرة ذات معنى:

ـ سأنتظرك في الحضرة إن شاء الله.

ورحل بهدوء بعد أن ألقى عليهما السلام، تبعته (ليلى) بعينيها، بينما كان (يحيى) ينظر إليها منتظرًا أن تشرح له ما يحدث، فقالت له وهي تقف مستعدة للرحيل:

ـ سأخبرك بكل شيء لاحقًا.

***

خطت (ليلى) إلى المنزل وهي تتمنى أن يكون كل ذلك مجرد حلم سخيف آخر، وأنها سترى أباها بمجرد دخولها المنزل جالسًا في مكانه على أريكته المفضلة، ولكنها لم تجد إلا اللون الأسود يحاوطها من كل جانب، فانقبض قلبها ودمعت عيناها في مرارة.

جلست في أقصى الصالة وحيدة صامتة تتحسَّس مِسبحة جدها في جيبها بين الحين والآخر، وقد شعرت أن الأمور قد غمرها الضباب فجأة، بعد أن بدأت في الوضوح. أتت ابنة خالتها تخبرها بحذر أن هناك ضيفًا يريد رؤيتها، في البداية ظنته (يحيى)، ولكنها صُدمت حينما رأته مقبلًا عليها، ويبدوعلى وجهه حزن صادق.

كان(شريف) طليقها آخر شخص تتوقع قدومه، فنظرت إليه بابتسامة حزينة وهي تفكر أنه مازال كما هو بكامل أناقته وشهامته المعتادة.

مدَّ (شريف) يده والتقط يدها، وهو يقول معزيًا:

ـ البقاء لله يا (ليلى).

ـ ونِعْمَ بالله.

قالتها ثم سحبت يدها بسرعة من يده ودعته إلى الجلوس وبداخلها شعور غريب تجاهه، لقد افتقدته بالفعل، افتقدت حنانه واحتوائه وأبوته، وربما ذلك هو أكثر ما تحتاج إليه الآن، ولكن ما معنى ظهوره الآن بالتحديد؟هل تلك رسالة أخرى يبعث بها الله إليها؟

يا الله، لقد أصبحت تائهة، لا تفهم شيئًا، خائفة من كل شيء، خائفة من أن تتخذ قرارًا خاطئًا، أو أن تخطئ قراءة تلك الإشارات فتسقط في دوَّامة جديدة، لا يعلم أحد سوى الله، متى ستخرج منها مرة أخرى.

قطع (شريف) حبل أفكارها المتضاربة، وهو يسألها في حنان:

ـ كيف حالك يا (ليلى)؟

أجابته وهي مطرقة برأسها:

ـ بخير، الحمد لله.

ثم عادت إلى صمتها لا تجد شيئًا لتقوله، فقد مات الحوار بينهما منذ زمن ولا أمل في عودته مرة أخرى، فظل هو الآخر صامتًا يهز كلتا قدميه في توتر كعادته المعروفة.

تعجبت (ليلى) مما أصبحا عليه الآن، هذا الرجل كان في يوم من الأيام أقرب الناس إليها وكانت تشاركه كل شيء، منزله وحياته وفراشه، والآن وبالرغم

من أنه لا يفصلهما سوى سنتيمترات قليلة إلا أنها تشعر أنه يجلس على الجانب الآخر من الكرة الأرضية.
كيف تصل بنا الحياة إلى ذلك الطريق المسدود في علاقتنا بأحدهم؟ ترى لماذا أتى (شريف)؟ هل وجدها فرصة ليعيد الحياة التي ماتت بينهما؟ أم إنها الأصول التي لا يجب أن يحيد عنها أبدًا؟
تذكرت (يحيى) الجالس في شقة الدور الأرضي، فنظرت إلى (شريف) في توتر وهي تفكر أنه ربما لم يعرف عن (يحيى) شيئًا سوى اسمه، ولكنه على الأقل رحل وهو يرى أنها لم تعد جديرة بأن تحمل اسمه بعد الآن، فاغمضت عينيها في ألم وهي تعود بذاكرتها إلى ذلك اليوم.

***

بعد العملية الجراحية...
فتحت (ليلى) عينيها في بطء؛ لتجد أنها ما زالت على فراشها في تلك المستشفى، فقد أصبحت مؤخرًا تظن أن كل ما تمر به هو مجرد حلم سخيف، وستستيقظ منه على واقع مختلف، أو ربما هذا ما كانت تتمناه.
لم يكن بالغرفة سوى (شريف) الذي كان يقف في أقصى الغرفة يتحدث في هاتفه المحمول بصوت منخفض كي لا يوقظها.
حاولت أن تعتدل في فراشها، ولكنها تألمت بشدة، فصدرت منها آهه مكتومة جعلته ينهي مكالمته سريعًا، ويسرع إليها لمساعدتها في الجلوس.
حاولت ألا تنظر إليه، أو تلتقي عيناها بعينيه، ولكنه كان قريبًا منها بقوة الاحتضان، وحينما استقرت في جلستها فوجئت به يطبع قبلة حنون على جبهتها وهو يربت بإحدي يديه على كتفها، فابتسمت له ابتسامة متوترة ثم

هربت بعينيها بعيدًا وهي تدعو الله أن يأتي أيُّ أحد؛ ليرفع عنها ثقل وجودها معه بمفردها.

لم تكن تتهرب منه إلا لشعورها بالخزي من نفسها، ومن ذلك اليوم مع (يحيى)، ومن ذلك الوضع الذي رآها عليه (شريف) يوم حاولت الانتحار، يا لقساوتها لقد جعلته يمر بذلك الموقف وذلك الألم مرتين، وما زال هو على عهدها به حنونًا طيبًا جميلًا.

أمسك يدها في حنان، فكرت أن تسحبها، ولكنها رأت أن ذلك سيحزنه، فتركتها مستكينة بين أصابعه يضغط عليها برفق بين الحين والآخر كأنه يتحدث إليها بطريقة أخرى طالما أنها تغلق أيَّ فرصة بينهما لأيِّ حوار.

كم تكره قسوتها معه، ولكنها مرهقة، متعبة وحيدة تشعر أنها في قاع بئر سحيق، والجميع يتحدث إليها من على السطح، لا أحد يدرك مدى بعدها السحيق، لا أحد يدرك مدى معاناتها وخوفها.

كان (شريف) ينظر في هاتفه المحمول متظاهرًا بالانشغال، ولكنه لم يكن كذلك على الإطلاق، بل كانت عيناه ترمقان (ليلى) بين الحين والآخر، ورأسه ساحة حرب وهو يحاول أن يبحث عن السبب الذي أوصل الأمور إلى ذلك الحد بينهما؟ ما الذي جعلها تطلب الطلاق، وتترك كل شيء عائدة إلى مصر؟

ـ ليلى.

قالها (شريف) بهدوء ظاهري فقط، وقد قرر أن يقطع ذلك الصمت الذي ساد بينهما لأيام، نظرت إليه في ترقب؛ ولأنه لم يعتد المراوغة فقد سألها مباشرة:

ـ يجب أن نتحدث، أريد أن أعلم ما الذي أوصل الأمور بيننا إلى تلك المرحلة، أريد أن أعرف فيمَ قصرت؟

نظرت إليه في أسف وهي تلعن نفسها، لم تكن أبدًا قاسية بل كان قلبها دائمًا طيبًا لينًا لا يؤذي ولا يؤلم، ولكنها ظلمته وقست عليه، قست على أكثر رجل كان حنونًا ومعطاءً معها.

ـ صدقني يا (يحيى)، المشكلة فيّ أنا وليس فيك.

قالتها دون تفكير وهي تنظر إلى نفسها من بعيد كأن التي تتحدث امرأة أخرى لا تعرفها، قالتها وهي لا تصدق أنها تعيد نفس كلمات (يحيى) لها، فتألم قلبها وهو يستعيد نفس وجع تلك اللحظة.

نظر إليها (شريف) في صدمة وشفتاه ترتجفان، ثم قال وهو يحاول أن يبدو متماسكًا:

ـ بالمناسبة أنا اسمي (شريف)..

اتسعت عيناها في صدمة، وقد تحجَّرت بهما دمعتان كبيرتان حينما انتبهت لما قالته، حاولت أن تتفوه بأيِّ كلمة، ولكن انعقد لسانها من هول ما فعلته، لم تكن نظرته تلك المرة نظرة خيبة، بل نظرة غضب ممزوج باحتقار واشمئزاز.. هكذا رأتها.

وقف (شريف) فجأة كأنه ينقذ ما تبقى من كرامته، ثم قال بنبرة رصينة:

ـ أنتِ طالق يا (ليلى)، طالق بالثلاثة.

واندفع خارجًا من الغرفة، ومن حياتها كلها إلى الأبد.

***

تألمت ملامح (شريف) كأنما كان يشارك (ليلى) ذكرى ذلك اليوم الذي قرر فيه الرحيل دون أن يستمع إليها أو يعطيها فرصة للحديث. حاول أن يقطع ذلك الصمت بينهما، ولكنه كالعادة لم يجد ما يقوله، فوقف مستعدًا للرحيل، هي

أيضًا لم تسأله لِمَ الاستعجال، ولم تطلب منه البقاء، فقط شكرته بقوة على مجيئه، فقد كان وجوده يزيد من ثقل روحها، ويجعل عقلها مشتتًا أكثر وأكثر وهي متعبة بما يكفي.
اصطحبته إلى الأسفل، ولكنه توقف فجأة في منتصف السلم ونظر إليها نظرة طويلة أصابتها بالتوتر، وقد كان أكثر ما يوترها هو وجود (يحيى) على بعد بضعة درجات منهما.
قال (شريف) بعد تردد:
ـ (ليلى)، أنا مدين لكِ باعتذار، لقد اتخذت رد فعل سريع دون أن استمع إليكِ، ودون أن أعطيكِ فرصة لتوضيح موقفك.
همَّت (ليلى) أن تجيبه، ولكنه أسكتها بإشارة من يده، وأكمل قائلًا بانفعال:
ـ أعرف أن الوقت ليس مناسبًا لمثل ذلك الحديث، كل ما أريد أن أقوله أنني أتيت من أجلك؛ لأكون إلى جوارك.
نظرت إليه بحزن، ثم لمحت بطرف عينيها (يحيى) واقفًا أسفل السُلم ينظر إليهما، فارتبكت أمعاؤها، وتوترت ملامحها وشعرت بسخونة شديدة تخرج من وجهها.
نظر (شريف) إليها ثم إلى (يحيى)، ثم عاد إليها مرة أخرى بنظرة متسائلة كأنه كان ينتظر أن تخبره من ذلك الشخص، بينما كان (يحيى) ينظر إليها نظرة لم تفهمها، ولكنها ظلت صامتة لثوانٍ فأطرق (يحيى) برأسه ورحل في هدوء، فسألها (شريف):
ـ من هذا؟
نظرت (ليلى) في حزن إلى مكان (يحيى) الذي أصبح فارغًا بعد رحيله، وقالت:
ـ صديق.

لم يقتنع (شريف) بإجابتها، عرفت ذلك من نظرته؛ فقررت قطع الطريق على كل شيء يفكر فيه، وقالت له:

ـ (شريف)، أنت رجل شهم، لا أعتقد أنني سأقابل أحد مثلك طوال حياتي، سعيدة أننا عدنا أصدقاء.

أومأ برأسه وعلى وجهه ابتسامة خفيفة متوترة، وقال:

ـ أنا موجود دائمًا، أرجوكِ لا تترددي يومًا في الاتصال بي إذا احتجت شيئًا.

ثم رحل سريعًا دون أن ينتظر منها ردًا.

رحل وتركها أكثر تشتتًا وبعثرة من ذي قبل، فظلت في مكانها لحظات، وقد تملكها غضب جعلها تعود إلى المنزل، وتقوم بالاتصال بـ (يحيى) وهي تفكر فيما حدث منذ قليل.

شعرت بالضيق من نفسها لصمتها الغبي وسوء تصرفها، ولكن ماذا كان من المفترض أن تفعل. كلٌّ منهما كان ينتظر أن تقوم بتعريفه إلى الآخر، كل منهما كان يريد أن يثبت شيئًا للآخر أو لنفسه، وهي بينهما منهكة متعبة تحارب في جبهات كثيرة، لا يعلم أيٌّ منهما عنها شيئًا.

جاءها صوت (يحيى) على الناحية الأخرى وهو يحاول أن يكون هادئًا، فسألته دون مقدمات:

ـ لماذا رحلت؟

ـ ولماذا أبقى؟

ـ لأنني أحتاجك..

قالتها (ليلى) بضعف، وقد بدأت دموعها تنساب، فزفر (يحيى) في ضيق، وقال:

ـ أنتِ تحتاجين أن تجدي نفسكِ أولًا يا (ليلى)، تحتاجين أن تقرري ماذا تريدين.

ـ ولكنك وعدتني بأنك لن ترحل مرة أخرى.

ـ أنا لم أرحل، أنا انتظر قرارك أيًّا كان.

شعرت بإهانة شديدة، وأن كبرياءها يُداس مرة أخرى، فقالت له صارخة:

ـ أنت أناني، كلكم أنانيون، ولكنني لن أترك نفسي لأقع في نفس الخطأ مرة أخرى، الآن أنا من سيرحل يا (يحيى)، لم أعد أريدك في حياتي بعد الآن.

قالتها بحرقة، ثم أغلقت الهاتف دون سلام؛ لتنفجر في بكاء حار، ولا تعرف من الذي تبكيه، والدها، أم (شريف) أم (يحيى)، أم نفسها؟

أخذت تشهق شهقات متتالية، وقد انقطع الهواء عن صدرها تمامًا، فخرجت مسرعة إلى الشرفة تحاول أن تستنشق هواءً نظيفًا، وما إن وقعت عيناها على المسجد حتى بدأت حدة بكائها في الانخفاض وأنفاسها في الانتظام، نظرت إلى المسجد في إجلال، وأخذت تتطلع إلى مئذنته العالية، وقبته الكبيرة بأنوارها الخضراء، وما هي إلا دقائق قليلة حتى سمعت أذان المغرب يُرفع فابتسمت وكأنها فهمت الإشارة..

إن الله يناديها، يخبرها بأنه ينتظرها أن تكمل الطريق، طريقها هي بمفردها دون مساعدة أحد إلا هو.

ربما أراد الله لكل ذلك أن يحدث لتأتي إليه خالية الوفاض؛ أبعد عنها الجميع لتكون معه هو فقط، لا يشغلها عن حبه في تلك المرحلة أحد.

نظرت إلى السماء، وعلَّقت عينيها بها، ثم عادت بهما إلى المسجد، وكأن عينيها التي نزلت ليست هي التي رُفعت، وكأن الله ضرب قلبها بطوفان من السكينة والهدوء، فتوقفت عن البكاء تمامًا، وتركت كل شيء خلفها، وتوجهت مباشرة إلى المسجد.

كان الزحام داخل المسجد وخارجه شديدًا، ولا يقارن بأيِّ يوم سابق، فتلك هي الليلة الكبيرة التي يحرص الجميع على حضورها، لينال بعضًا من نفحات الولي في تلك الليلة.

دخلت إلى المسجد؛ لتقع عيناها أول ما تقع على ذلك التجمع الكبير في أقصاه، مجموعة من الرجال يقفون في عدة صفوف متقابلة متراصّة كأنهم بنيان مرصوص يقف على رأسهم الشيخ (جبريل)، بينما يدور حولهم منشد ينشد قصائد في مدح سيدنا محمد.

لم تظن أنها رأت أروع من ذلك المنظر في حياتها، فقد كان جميعهم يرتدون الجلابيب البيضاء، وبعضهم يرتدي عِممًا خضراء. يتراصون في نظام دقيق كأنهم خلية من النحل، يتمايلون للأمام والخلف في حركات منتظمة متتابعة، لا يخرج أحد منهم عن الآخر، أما صوتهم فكأنه جاء من السماء جهوريًا قويًا مليء بالتوسل والرجاء، يقولون كلمة واحدة على قلب رجل واحد:

(الله.. الله.. الله.. الله)، بينما كان ذلك المنشد في عالم آخر يدور حولهم يمدح، قائلًا:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك.

عند حلول الحادث العَمِمِ..

فإن مِنْ جُودِكَ الدنيا وَضَرَّتَهَا..

ومن علومك عِلْمُ اللَّوْحِ والقَلَمِ..

دع.. ما ادَّعته النصارى في نبيهم.

واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكِمِ..

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين..

من عُرب ومن عجم..

هو الحبيب الذي تُرجي شفاعته..
لكل هولٍ من الأهوال مقتحمِ..
دعا إلى الله فالمستمسكون به..
مستمسكون بحبل غير منفصلِ..
مولاي صلِّ وسلم دائمًا أبدًا..
على حبيبك خير الخلقِ كلهمِ..

دنت (ليلى) حتى أصبحت على مقربة شديدة منهم، وهي مأخوذة بتلك السيمفونية التي لم تسمع في عذوبتها من قبل..

كأنهم أنوار متجلية من السماء، بينما كان اسم (الله) بتلك الطريقة التي ينطقونه بها يهبط على قلبها فيُجْلي كل المشاعر المؤلمة التي شعرت بها منذ بدأ قلبها يعرف طريق الحزن، كأن الله يضع يده على قلبها، ينفض عنه كل آلامه وخيباته؛ فشعرت بدفء عجيب وبرودة أيضًا في نفس الوقت.

طافت حولهم وهي تنظر في تعجب إلى أحوالهم المختلفة والعجيبة، والتي لم ترها من قبل سوى في الأفلام، فمنهم من كان مبتسمًا هائمًا، ومنهم الباكي، ومنهم الحاضربجسده والذَّاكر بقلبه ولسانه، وكان أغربهم ذلك الذي أخذه حال الذكر بقوة؛ فأخذ يصيح بكلمات غير مفهومة وقد تملَّكه الوَجْد.

أما الشيخ (جبريل) قد كان حاله عجيبًا، يقف ذاكرًا منكسرًا خاشعًا مسكينًا كأنه جسد فقط، أما روحه فكانت في السماء مع أرواح أخرى.

لم تجرؤ على الانضمام إليهم، ولكنها رويدًا رويدًا بدأت تشعر بلسانها يردد مثلهم دون وعي منها (الله.. الله.. الله.. الله)

وفجأة وبعد وقت لا تعرف مقداره رأت الشيخ (جبريل) يشير إليهم بكلتا يديه أن يهدأوا فبدأ الجميع يهدأ بالتدريج، حتى تحول ذكرهم إلى مجرد نفس منتظم يرتجف له القلب وتطرب له الروح؛ هنا شعرت (ليلى) بدوار وثقل في نفسها وقدميها، فجلست على الأرض مستندة بظهرها إلى الحائط، وظلت تنظر إليهم حتى انتهوا تمامًا من الحضرة بقراءة الفاتحة لكل آل البيت وأولياء الله الصالحين، ثم ختموا بالصلاة والسلام على سيدنا محمد. بدأوا في الانصراف تباعًا وفي هدوء، بينما استند الشيخ (جبريل) بظهره إلى أحد الأعمدة الرُّخامية العملاقة التي تتوسط المسجد.

انتظرت (ليلى) قليلًا لكي تستعيد سيطرتها على نفسها مرة أخرى، ثم ذهبت إليه فاعتدل بوهن في جلسته، ونظر إليها نظرة مبتسمة ذات معنى، فبادلته الابتسامة وهي تقول في هيام:

ـ لم أر في حياتي أروع مما رأيت، ولم أشعر أبدًا مثلما أشعر الآن، كأنني سكرانة.

ابتسم الشيخ (جبريل) وقال لها بصوت خفيض، وكأن روحه لم تعد إليه كليًّا:

ـ وهل هناك كأس يعلو عن كأس المحبة ونور ذكر الله؟

سألته في فضول:

ـ كانت أحوالهم غريبة، رغم أنكم جميعًا كنتم تقومون بنفس الحركات بنظام عجيب، ولكن كل فرد كان له حالة خاصة، لماذا؟

أجابها الشيخ (جبريل) بعيون دامعة ومحبة خالصة:

ـ من يذكر الله، يذكره الله، وحينما يذكرالله العبد تتلذذ الروح بذكر الله لها، فيحدث الوجد؛ أي أن الروح تسكر، فتتمايل في الجسد ليحدث ذلك الاهتزاز اللاإرادي، وكلما ذكر الله عبده زادت نورانية المحبة، وهنا تحدث تلك الأحوال، وكلٌّ على حسب مقدرة تحمّل قلبه لذكر الله له.

اغرورقت عينا (ليلى) بالدموع، وهي تستعيد ذلك المشهد المهيب، فسألت الشيخ بتوسل:

ـ هل من الممكن أن أصبح مثلهم؟

ـ بالطبع، الجميع يمكنه ذلك، ما بالك أنتِ المختارة بكل تلك الواردات والإشارات التي بعث بها الله إليك، الموصولة بمدد جدك رضي الله عنه.

تذكرت أمر جدها فسألته في فضول:

ـ كيف لم يتحلل جسد جدي حتى الآن؟

تنهَّد الشيخ (جبريل)، ثم قال لها:

ـ سبحانه جلَّ شأنه، يعطي الله أولياءه الصالحين كرامات، ومنها أنه حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد بعضهم، سيدنا العباس عم الحبيب النبي حينما حدث سيل البقيع، واضطروا لنقل جسده الشريف وجدوا جسده كما هو كأنه دُفن البارحة.

نظرت إليه (ليلى) في دهشة وهي لا تصدق أن جدها له تلك المكانة العالية عند الله، حينما أكمل الشيخ قائلًا:

ـ ورأس سيدنا الحسين حينما نقلوها إلى مصر قالوا إنها كانت تقطر دمًا وتُصدر مسكًا، اقرأي وابحثي ستجدي الكثير والكثير من الصحابة، وقد حدث لهم ذلك وما زال يحدث حتى الآن، قال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم: (**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**) {آل عمران:196} صدق الله العظيم؛ من مات في سبيل الله، أي شهيد الحرب وشهيد الحب.

أخرجت (ليلى) من جيبها مِسبحة جدها، ثم سألت الشيخ وهي تشير إليها:

ـ وهل لتلك المِسبحة علاقة بالأمانة؟

ـ بالطبع، إنها حاملة الأمانة.

نظرت إليه نظرة أنها لا تفهم شيئًا، ثم قالت بحزن:
ـ أشعر أن هناك شيئًا ما يحدث بداخلي، شيء ما يتغير، ولكني لا أعرف ما هو.
عاد الشيخ (جبريل) لابتسامته الطيبة، وهو يقول لها:
ـ إنه بداية استشعارك لحب الله، فقد بدأ قلبك يتعرف عليه، وستظلين هكذا حتى يسكن القلب تمامًا، ويستقر به فلا يرى إلا الله.
ـ وكيف يسكن الحب ويستقر في القلب؟
ـ بالعبادة.. يقول تعالى في الحديث القدسي (وما زال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه)، ولكل ركن من أركان الإسلام نافلة؛ فالحج نافلته العمرة، والصوم نافلته صيام يومي الإثنين والخميس، والزكاة نافلتها الصدقة، والصلاة نافلتها صلاة السُنة، وشهادة أن لا إله إلا الله نافلتها ذكر الله، وأن محمدًا رسول الله نافلتها ذكر الحبيب والصلاة عليه.
نظر الشيخ (جبريل) إلى مِسبحة جدها، ثم أكمل قائلًا:
ـ كل العبادات وسيلة للحب، ولكن المقصود من كل ذلك هو الله. فسرُّ الوصول في الذكر..
نظرت (ليلى) إلى المِسبحة، وقد فهمت كل شيء، الآن فقط فهم قلبها ما هي الأمانة التي تركها لها جدها؛ كانت في البداية تظنها شيئًا ماديًّا، فأخذت تبحث عنها في كل مكان، وهي تصاحبها في صحوها ونومها، فقد كانت الأمانة في قلبها.
تنهدت (ليلى) وهي تسأل الشيخ (جبريل):
ـ ولماذا الآن بالتحديد؟
ابتسم لها الشيخ ابتسامة ذات معنى، وهو يجيبها قائلًا:

ـ أنتِ مختارة من الأزل، ولكن جاء وقتك الآن، الأمر أعظم مما يدركه عقلنا؛ لذلك كان القلب أعظم أبواب الإدراك.

ابتسمت في حزن، ثم سألته بعينيها عمَّا يجب أن تفعله الآن كأنها تستنجد به، وكأنه قرأ عينيها، وسمع صوت قلبها، فأجابها قائلًا:

ـ التوبة الخالصة وبابها الاستغفار، فالاستغفار يزيل الرَّان عن القلب؛ فيصبح جاهزًا لتلقي المحبة وتجلياتها وأنوارها (أستغفر الله العظيم هو التواب الرحيم) تكرريها سبعين ألف مرة.

سألته (ليلى) باستغراب:

ـ ولماذا ذلك العدد بالتحديد؟ ما الحكمة منه؟

ـ سبحان من جعل للأعداد أسرارًا، يقول تعالى: **(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)** {القمر:49} وإلا لماذا نصلي خمس صلوات في اليوم؟ لماذا لا نصلي سبعة أو عشرة؟ ولماذا خلق الله الدنيا في ستة أيام وأتمها في اليوم السابع؟ ألم يكن قادرًا على خلقها في ساعة واحدة؟ ولماذا هناك سبع سماوات؟ وللجنة ثمانية أبواب فقط؟ ولماذا زبانية جهنم تسعة عشر؟ إنه سر الله في الأعداد.. في الدنيا إذا اتصلت بأحد وأخطأتِ في رقم واحد، سيجيبك شخص آخر تمامًا وذلك في الظاهر، فما بالك بشريعة الله وبواطن الأمور.

ابتسمت له (ليلى) ابتسامة صافية مليئة بالشكر والامتنان والمحبة، ثم أحكمت قبضتها على مِسبحتها، وودَّعته على وعد بلقاء قريب بعد أن تنتهي من السبعين ألف استغفار لله، ولكنها توقفت وسألته قبل أن ترحل:

ـ ألا يوجد شيء آخر تريد قوله لي؟

اتسعت ابتسامة الشيخ (جبريل)، وهو يقول لها بصوت شعرت أنه قد أتى من السماء:

ـ إن الله يُحبك.

ارتجف قلبها من تلك الكلمة، ولكنها أصبحت على يقين منها؛ فخرجت إلى ساحة المسجد، وهي تشعر بسلام تام.

نظرت إلى شرفة منزلهم في حزن وهي تفكر في أبيها، ثم قررت أن تنعيه بطريقتها الخاصة وكما كان يفضل هو، فبدأت تتفقد أرجاء المكان لتستعيد ذكرياتها معه وهي صغيرة، حينما كان يصطحبها في الليلة الكبيرة؛ لتلعب وتمرح وتبتاع كل ما تريده.

ظلت تتجول في ساحة المسجد تنظر إلى كل شيء بعين جديدة، إلى فرحة الأطفال ووجوه الرجال والنساء المبتسمة، إلى راقصي التَّنورة الذين كانوا يتمايلون بوجد على أصوات المواويل التي تمدح النبي وآل بيته، إلى الألعاب التي كان يقف الناس أمامها في طابور منتظرين بشوق أن يأتي دورهم..

مرت أمام عينيها كل الأحداث التي توالت عليها منذ أن عادت إلى مصر، فابتسمت في راحة وهي تفكر أنها لولا كل ما حدث لما كانت هنا، لولا سقوطها القوي ما ارتفعت كل تلك المسافة، وما ذاقت طعم ذلك السلام الذي أصبح يجتاحها.

خلق الله الدنيا في ستة أيام وأتمها في السابع، وهذا ما فعله معها بالضبط.

ابتسمت في سعادة وهي تتنفس بعمق، وقد أقرَّت بداخلها أنها لم تعد تفتقد نسختها الأولى بعد الآن؛ فكل ما مرت به طوال سنوات حياتها كانت درجات تصعدها واحدة تلو الأخرى لكي تصل إلى ذلك الحب، ولترى كل ذلك النور، وتستشعر كل تلك السكينة.

فيما مضى كانت دائمًا تشعر أن شيئًا ما ينقصها، ربما حنان، ربما صديق، حب، أو أمل، وربما كان نفسها، ولكنها الآن عرفت ما ينقصها وتغير الوضع تمامًا بعد أن أعطاها الله كل ذلك، وأصبح لها أكثر من ذلك.

أصبح صدرها واسعًا، وقلبها يتسع كل يوم أكثر من اليوم الذي يسبقه حتى تاهت فيه الحيرة، وقبع الألم في أدناه. ربما ما يزال الحزن مسيطرًا، ولكن حتى ذلك الحزن اختلف كثيرًا عن ذي قبل، أصبح حزنًا وقورًا يزيدها حبًا وتعلقًا، وليكن هو زكاة قلبها.

تساءلت بداخلها ما هي الخطوة القادمة؟ ماذا ستفعل بحياتها؟ وماذا ستفعل لنفسها؟ لم يعد (شريف) خيارًا مطروحًا، فقد أغلقت صفحته نهائيًا وبلا رجعة، أما(يحيى) فقد زاد يقينها أن حكايتهما لن تنتهي أبدًا.

ربما كان محقًا فيما قاله، فهي تحتاج أن تفهم نفسها أولًا لتعرف ما تريده وتقرره، ربما كل ما تحتاجه في تلك الفترة أن تكون وحيدة بعيدة عن كل شيء؛ ليصفو ذهنها تمامًا، وتُخرج من قلبها أيَّ تعلق بالدنيا حتى وإن كان ذلك الحب الذي تمنته طوال حياتها.

طريقها الجديد يجب أن تسيره بمفردها؛ فهو الطريق الذي لا تحتاج به رفيقاً سوى الله.

اتسعت ابتسامتها في راحة ملأت صدرها من تلك النتيجة التي وصلت إليها حينما وقعت عيناها على تلك السيدة، فضيقت عينيها وهي تقترب منها لتتبين ملامحها جيدًا، وما إن تأكدت من أنها هي حتى اتسعت ابتسامتها من بين دموعها الساخنة.

كانت هي بملابسها السوداء، وتلك الشامة المميزة في حاجبها الأيسر، لم يتغير بها شيء سوى أنها أصبحت عجوزًا؛ ضاقت عيناها كثيرًا، وتجعَّد وجهها وصَغُر حجمها.

كانت هي بائعة التوت التي أغرتها يومًا بضاعتها وهي في السابعة من عمرها فتاهت من أمها.

نظرت إليها (ليلى) وهي تبتسم لها بحب؛ فسألتها العجوز بصوت مرتعش:

ـ توت يا عسل؟

خرجت من (ليلى) ضحكة صافية، ثم قالت لها وهي تعطيها مبلغًا كبيرًا من المال:

ـ سأبتاع كل ما معك.

نظرت البائعة إلى ذلك المبلغ، ثم عادت بعينيها إلى (ليلى) لتتأكد أنها ليست مجنونة؛ فابتسمت لها الأخيرة بحب وهي تقول:

ـ كل عام وأنتِ بخير.

قبَّلت العجوز النقود وحمدت الله، ثم قالت بصوت عالٍ وهي تنظر إلى مسجد سيدي طلحة:

ـ بركاتك يا مولانا، بركاتك يا سيدي وتاج رأسي.

ابتسمت (ليلى) من فطرتها، وهي تستعيد ذكرى ذلك اليوم حينما تاهت من أمها، وكيف أنها ظلت تائهة منذ ذلك اليوم ولمدة سبعة وعشرين عامًا، وها هي قد عادت أخيرًا.

بدأت عامها الجديد في السماء، وكأنها كانت إشارة أخرى لم تفهمها سوى الآن. عادت امرأة ناضجة مرت بالكثير، وربما لولا ذلك التيه الذي مرت به ما كانت وصلت لما وصلت إليه الآن.

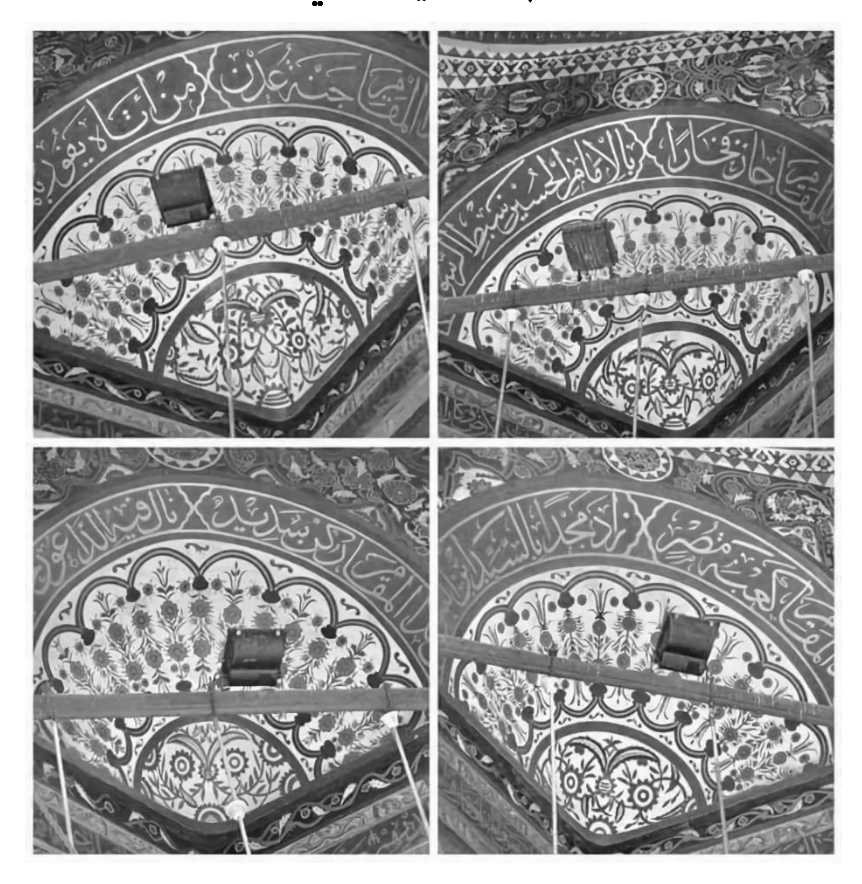
عادت بعد كل تلك السنوات لنقطة البداية؛ لتتأكد أنه لا شيء يبدأ وينتهي أبدًا.
عادت تكتشف الحياة من جديد بنفس الحب والشغف والفضول كأنها ما زالت طفلة، ولكن في الرابعة والثلاثين من عمرها..
لقد عادت، أخيرًا عادت.

تمت بحمد الله

مقام الحسين رضي اللّٰه عنه



أركان مقام الحسين رضي الله عنه



مقام العارف بالله طلحة أبي سعيد التلمساني



بطاقة العارف بالله طلحة أبي سعيد التلمساني



بسم الله الرحمن الرحيم «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» صدق الله العظيم الآية

سيدى العارف بالله تعالى طلحة أبى سعيد التلمسانى رضى الله تعالى عنه ٥٦٤ - ٦٢١

● هو الشيخ طلحة أبو سعيد بن الشيخ مدين بن الشيخ شعيب التلمسانى (أبو مدين الغوث) الذى يمتد نسبه إلى مولانا الإمام الحسين (رضى الله تعالى عنه). ● ولد (رضى الله تعالى عنه) فى القرن السادس الهجرى عام ٥٦٤ هـ وعاش من العمر سبعة وستين عاما وانتقل فى رمضان عام ٦٣١ هـ

● أخذ الطريقة عن أجداده بتلمسان بالمغرب وكانوا من أتباع سيدى أحمد الرفاعى (رضى الله تعالى عنه) وقد مكث يطلب العلم والمعرفة بملازمة ابن عمه أحمد ابن الحسين بن الحسيب النسيب «سيدى على الرفاعى» مدة سبع سنوات اكتسب خلالها علوم الشرع ولازم فيها اختلاء أورثه علم الحقيقة.

● وورد بأنه قدم إلى مصر مرورا بأرض الشام وكانت العادة قد جرت على أن يجتمع العلماء والأولياء حيث يؤدون صلاة العيد فى مسجد عمرو بن العاص. وصادف بعد أداء هذه الصلاة أن جلس الشيخ طلحة على مائدة الطعام وكتب على ورقة بعض آيات القرآن وما أن وصلت إحدى سفن الروم وكانت آتية من أعالى النيل حتى قلب الورقة فانقلبت السفينة. فسأله والده بعدها لم فعلت هذا فقال أنهم أعداء الله تعالى وأعداء الدين. فقال له والده ارحل عن هذا البلد (الفسطاط) واركب جوادك وخذ معك زوجتك (ابنة عمه الشريفة العفيفة) وخذ معك السيد/ محمد الشناوى (المدفون بشنو) وعندما يقف جوادك فانزل واعلم أن هذا مقامك فتمكن منه وانشر العلم والدين. فرحل الشيخ ومر بأرض سخا بالغربية ثم انتقل الى أرض (دميلقون كفر الشيخ حاليا) وقال ها هنا مقامى والتف حوله عشاق المعرفة وظهرت له كرامات وكثر أتباعه ومريدوه وأقاموا له مصلى فى هذا المكان ولما تضاعف عدد المنازل حول مقر إقامته أطلق على هذه المنطقة كفر الشيخ طلحة نسبة إليه. ثم اختصر إلى الاسم الحالى كفر الشيخ (التى أصبحت بفضل الله تعالى إحدى محافظات الجمهورية). وأنجب الشيخ ابنه سعيد الشريف الطاهر والولى الظاهر المجاور لمقام والده وكذا حفيده على. كما أنجب السيد عمر طلحة الكائن ضريحه ببلدة إبشان مركز بيلا محافظة كفر الشيخ

● ومما ورد أنه كان (رضى الله تعالى عنه) قطبا بارزا وكان شيخا للإسلام وخادما للسنة المطهرة. وكان ظاهر الجمال والبهاء بالغ الحكمة ثاقب النظرة صائب الكلمة وقور فى هيبة. ● ومما ورد أيضا عن أحد العارفين بالله تعالى أنه حضر وفاة سيدى طلحة سيدنا الخضر (عليه السلام) وصاحب الوقت والصحابة الكرام. كما حضرها أربعون وليا منهم الشيخ أبو الفتح الواسطى وسيدى على العراقى والشيخ عبد الرحمن الدميرى وسيدى داود الأعزب وأخيه فى الله تعالى سيدى نصر السيخلانى (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين).

● هذا ويقام له فى كل عام احتفال دينى كبير إحياء لذكرى مولده (رضى الله تعالى عنه) بحضور آلاف المريدين والمحبين الوافدين إليه من شتى أرجاء البلاد. ● المصدر: «الوثيقة التاريخية المحفوظة لدى فضيلة شيخ الضريح المرحوم/ محمود هاشم

* خطاب الأستاذ/ محمد البيلى سعد أبو صلحه الرفاعى وكيل مشيخة الطرق الصوفية عن كفر الشيخ ونقيب الأشراف بها» ● هذا وقد أورد الإمام الشعرانى فى طبقاته «(الجزء الأول)» بأن الشيخ أبو مدين المغربى (أبو مدين الغوث) مدفون بتلمسان بالمغرب وأن ولده مدين (والد سيدى طلحة) مدفون بمصر بزاوية سيدى عبد القادر الدشطوطى ببركة القرع (بحى باب الشعرية حاليا)

هذا وقد ورد بكتاب مساجد الأولياء للدكتور/ سعاد ماهر فى ترجمة سيدى مدين التلمسانى عمارة مدين بباب الشعرية ان سيدى على المغربى بن سيدى شعيب أى عم سيد طلحة جاء الى مصر وضريحه بناحية طلية بالمنوفية وابنه سيدى احمد الاشمونى الكائن ضريحه بأشمون وهو «اى سيدى احمد الاشمونى والد سيدى مدين التلمسانى»

كتبه الفقير الى الله
محمد محمد بيومى

شكر واجب

شكر خاص/ الشيخ محمد الخامي..
شكر لصديقي وأخي/ الكاتب محمد صادق..
الكاتب الجميل/ المهندس أحمد القرملاوي..
كاتبة السيناريو/ إيناس لطفي..
صديقة العُمر الجميلة/ نشوي بسيوني..